

عبد الرحمن بن عبد الوهاب

انوار القرآن

obeykandl.com

حبیب الزمہروی

انا غفر لہ

obeykandl.com

الاهراء

ولدى الحبيب نبيل

لم تكن الآلام على ما بها من وجيعة مهذّبة ، سوى
عَرَض في حياتي ؛ ولذلك وسخني تصويرها وترديد أناثها
بهذه الحكايات ؛ أما فرحة الحياة ، فرحتي بك يا ولدي
الحبيب ، فهي الجوهر في وجودي كأنسان . فإن عجزتُ
حتى الآن عن رسمها ، فلأنك لازلت تملك عليّ مسالك سمعي
وبصري ، ولكنني بك أولاً ، وبأختك الحبيبة نجلاء ،
سأفتح روعي لمباهج الحياة ، واستبدل بأناثي الحزينة ،
ابتساماتي البهيجة مـ

الحبيب نبيل

القاهرة في ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٧

obeykandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeykandl.com

لقد رأيتُ هذا الملجأ يا سيدي من نحو ثلاثين سنة ، ولم يسألني أحد سواك هذا السؤال من قبل . ولست أعرف عن اللقطاء إلا أنهم وجدوا — كما تقول تقارير البوليس — على أرصفة الشوارع ، أو قرب صناديق القمامة ، أو عند أبواب الجوامع والكنائس ، ولا أذكر من السيدات غير واحدة جاءت من وقت قريب تحدثني عن طفلها قبل إيداعه الملجأ . أما الرجال فلا أذكر أن جاء واحد منهم يفتش عن جنابته .

عندي في الملجأ مئات من اللقطاء من كل جنس ، وقد صيرتني المرانة خبيرة بعلم الأجناس ، صحيحة الفراسة . ويمكنني أن أدعي أن النظرة الواحدة إلى رأس طفل تجاوز أربعة أشهر من عمره تجعلني أحدد عنصره ، وأميز بين الأصل المصري والعربي والتركي واليوناني . واستطردت تقول وهي تبسم : لاشك يا سيدي في يسرك واقتدارك ، فما إن قرأت اسم سعادتك في البطاقة التي شرفتنى بها حتى وثقت بأن الطفل الذي ستبناه سيكون من السعداء ، وأملك أول رجل في رونق الشباب جاء يطلب لقيطاً يتبناه .

قلت لك يا سيدي إن سيدة واحدة فقط أتت تحدثني عن طفلها قبل أن تودعه الملجأ ، لم يطاوعها قلب الأم أن تلتقي بطفلها إلى الأقدار ، فليجأت إليّ لآتمخذي أمّاً تودعها سرها ، ثم تلتقي بفائدة

كبدها بين يدي . هل يطيب لك يا سيدي سماع حكايتها كما سمعتها منها ؟

الفتاة يا سيدي يونانية وسيمة الطاعة ، ساحرة النظرة ، متوثبة الروح ، لا تكاد تهدأ لها حركة ، تتكلم فتفيض نفسها على لسانها .
وهاك ما قالته لي :

« قذفت بي موجة الحرب إلى شاطئء السلامة بمصر عقب أن اجتاح الألمان بلادنا وصبت طياراتهم علينا الخراب والعذاب والموت .
لقد كنت واحدة من مئات أمثالي نجهل ماذا حل بوالدينا وأخواتنا وأهلنا ، ولا نعلم إلا أن السفن الإنجليزية قد حملتنا إلى مصر ، ثم نقلنا إلى معسكرات في الصحراء ، ولم نلبث أن ارتدينا ثياب الجنديية ، وأخذنا نقوم بالتمريبات العسكرية وبكل ما يطلب إلينا عمله .

شعرت بعد أشهر قليلة بالوهن يدب إلى والضمف بنوش جسمي ؛
والمسرات التي كانت السلطات العليا تدخاها على نفوسنا ، إن هي إلا مخدرات تذهل العقل وتعهد به عن التفكير الصحيح .
تمارضت على ما في من حيوية فوارة ، فركنت إلى الفراش أستعرض في عزاتي حالي التي لا يطيقها عاقل ، ولا يرضى بها سوى مستكين يأس أو مرغم مقهور ، وتبين لي في استجمامي أن حياتي إن هي إلا مغامرة شريرة دفعت إليها دفعاً ، وأنى فقدت أشياء كثيرة عزيزة أهمها مستقبلي ثم أنوثتي ثم غايتي من الوجود ،

وصرت من شذاذ الآفاق من أجل لقمة أتبلغ بها وكساء البسه .
 هجرت المعسكر ونضوت ثياب الجنندات ، ورحت أضرب في عرض
 الحياة ، لا أتغف عن بيع متعة ، لقاء لقمة ، أو كسوة ، أو مأوى .
 أرجوك يا سيدي ألا تحددجيني بنظرة نكراء إذا أنا فتحت
 لك مغاليق صدري ، وبحت لك بأسرار نارية كامنة فيه ، وأرجو
 أن ترحميني إذا أنا اعترفت لك بأني استهولت الشر المطلق في حياة
 الجندية ، فلذت بشر محدود جعلت عنانه بيدي ، وصرت إذا
 اقتنصت جنيتها واحداً من شيطان رجيم أو إنسان رحيم ، ضمت
 عليه أصابعي ، وأنفقت منه القرش الواحد ولو القرش أشغل معدتي
 بما أشترته بالقرش والمليم عن الركود والجوع ، وكنت بعد ذلك
 يا سيدي أتغف حتى تنفذ قروشي .

نفجني مرة ضابط عاد من ميدان الموت بهبة من المال لقاء متعة
 معربة مجنونة ، فخطر ببالي أن أقامر في سباق الخيل .

ربحت مرة ثم ربحت ، فلم تأخذني نشوة الريح ، ولم تقو على
 الدفع بي إلى مغامرات اللذة ، بل أحسست بعيل ملجاح إلى الاعتكاف
 في غرفتي لا أبرحها إلا لقضاء حاجة لا محيد عن قضائها ، ثم ألوذ بها
 من جديد لتكتنفي وحدة أحبها وانزواء يشعرنى بالكفارة والندم .
 اتخذت سباق الخيل ديدنا ، واسكني كنت حريصة جد الحرص
 على ألا أجازف فأخسر كل ما أملك ، مخافة أن أجبر على
 الانحدار فأستهين من جديد بأعز ما أملك .

شمس الشيطان — ولا أدري كيف ! — في أذني وأنا في ميدان
السباق أن أراهن على الحصان الجديد « فائز » .

ما كنت أعرف هذا الحصان ، ولا رأيت قبل اليوم ولا في
هذه الساعة أيضاً ، ولا سمعت به إلا وأنا في طريقى إلى السباق من
متكلم همساً عنه ، ولا أحسب أيضاً أن غيرى من هواة الرهان
على خيل السباق أو مدمنيه سمع باسم هذا الحصان الجديد الذى
أقحم اليوم على الخيل المتسابقة إقحاماً .

تركت مكانى على عجل ، واختطفت قائمة أسماء الخيل التى
تجرى فى الشوط ، فإذا باسم الحصان « فائز » بذيلها .

أسرعت إلى شباك التذاكر ولم يبق على إيصاده سوى بضع
دقائق وإذا بى الملح رجلاً كأنه يراكضى .

سمعت لهات الراكض ، ولا شك عندى فى أنه سمع دقات صدرى .

اصطدم رأسى بكتف هذا المزاحم حين بلوغنا شباك بائع التذاكر ،
وشعرت بيده القوية ندية بالهرق تنحط فوق يدي الصغيرة فتغطيتها ،

وسمعته يقول للبائع : أعطنى عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان

« فائز » ، وقالت أنا فى التو وبالنبرة الأمرة نفسها وبالجملة اللاهثة
أن يعطينى عشر تذاكر من فئة الجنيه على الحصان « فائز » .

نظر البائع إلينا نظرة فيها من معسافى الاستفسار والاستغراب

ما فيها ، فعمد إلى دفتر فانتزع منه عشرين تذكرة ودفعها إلينا كأننا

مشتري واحد .

تناول هذا الرجل الغريب التذاكر كلها وأخذ يعد عشرًا منها
هدًا وتبدأ بادي التعمد .

كدت أصفح هذا الرجل المديد القامة ، العريض المنكبين ،
المسبل عينيه فبق التذاكر بعدها كأنى شىء لا يستأهل أن ينظر إليه .
ناوانى التذاكر ، فووقت نظرتى الحادة الشرسة على نظرتة الهادئة ،
ولكن سرعان ما تبدلت نظرتة وظهرت الانفعالات الفجائية عليه ،
فقبص يده عن إعطائى تذاكرى ، وأخذنى بحركة عصبية من ذراعى
فجذبنى إليه ، وسمعتة يقول لى ونحن نهول صوب حلبة السباق :
لقد أشركتك فى حظى ، كما وقع قلبى فى شرك لحظك ... هيا
أسرعى فإننا سنربح ... أجل سيفوز الحصان « فايز » بالسباق
وسيندمج حظى فى حظك فتسعد معاً .

كان يجرنى وهو يركض ، وكنت أطاوعه متهاككة منقادة
فاقدة الإرادة . ولما باعنا الشرفة المطلة على حلبة السباق ، كانت
الحيل قد شرعت تجرى ، فتعلق بصرى بالحصان « فايز » وبالرقم
البارز على ظهر فارسه القزم ، ولم أفطن إلى أن ذراعى مكبلة بقبضة
الرجل الغريب إلا وقتما عمدت إلى حركة يدوية أستفز بها حماسة
فارس الحصان « فايز » ؛ فقد فطنت عند ذلك إلى أنى مقيدة ، فانزعجتها
بعنف ، والتفت صوب الرجل الغريب فصغمتة بكل ما أوتيت من قوة
عضلية وقلت وأنا فرحة ... سيربح الحصان ... سيربح الحصان ... ولم
أكد أهدأ من انفعالى والتفت إلى خيل السباق وهى فى نهاية جولتها

مقبلة تنهب الأرض ممدودة الأعناق ، حتى رأيت الحصان كأنه يطير بقوائمه لا يقفز ، ورأيت راكبه القزم منبطحاً فوق السرج ، وهو يسبق الخيول المصلية بأمطار ، فلم أتمالك أن التفت إلى الرجل الغريب شريكى ، فرأيت صدره قبالة صدرى ووجهه المشرق كذلك ، فتماقت بعنقه كما لو كان خطيبي أو حبيبي ، وأحسست مع انفعالي العصبى بقبلة منه تتغلغل هادئة مطمئنة فى كيانى ، فتراخت مفاصلى وكدت أفات ، ولكنه كان يحملنى ويضعنى بذراعيه القويتين .

مشيننا صامتين صوب خزانة السباق ، فقبضنا مبلغاً باهظاً من الأوراق دسها الرجل كلها فى حقيبتي . وإذ كنا فى السيارة عائدين صوب المدينة قال لى بصوت خافت هادئ كأنه يستوحيه من أعماق نفسه :
أكون من أسعد الناس يا آنستى لو رضيت أن أعيشك .
قلت وكأنى أبيض بوجدانى وعقلى : على أى نحو تريد معايشتى

ياسيدى ؟

فقال : على نحو يرضى الله والضمير وقوانين المجتمع .
استسامت لزوجى استسلاماً مطلقاً ، وعشت معه عيشة زوجية رضية هائلة ، لا تكدر صفوها التفانة إلى الماضى وقد دفناه ، ولا طموح إلى مستقبل يزهر بأكثر مما نزهره نحن من سعادة متبادلة .

عرضاً عرفت أن لزوجى الحبيب والدة وإخوة وأخوات ، ولكنى تعمدت التجاهل حتى لا أزججه فى أمر كتمنى إياه اغرض ما ، ثم تبين لى أنه من أصحاب المسكانة والصيت الطيب ، تردد الصحف اسمه مقروناً

بالتبجيل ، وقد سكتُ عن ذلك أيضاً مفتبطة مسرورة بزوجي الحبيب .
لم يعودني زوجي الابتعاد عني ولا التخلف عن البيت ؛ لأن حياتنا
كانت شبه رتيبة ، هو في ديوانه إلى ما بعد الظهر وأنا في بيتي أدير
شؤوني ، وقبلما كان يصحبنى في نزهة أو تسليمة من التسالي . أما أنا فقد
كنت أوتر البقاء في البيت على الخروج وحدي ، ولكنني كنت أحرص
على جمال وكرنا جنة للغبطة والسرور وفرح النفس .

قال لي ذات عشية إنه ذاهب لقضاء ساعة مع معارفه ، فلم أعارض في
ذهابه ، بل حبيت إليه قضاء بعض الوقت مع الأصدقاء ؛ لأن في مجالسة
الناس فوائد اجتماعية وأدبية .

همست في أذن زوجي الحبيب خبر اضطراب الجنين في أحشائي ،
وكنت أتوقع أن يضعني إلى صدره يقبلني قبلة الأب العتيد للأم العتيدة ،
ولكنه اكتفى بالابتسامة والساكوت .

أخذت ساعات جلوسه إلى رفاقه تتكرر وتطول ثم تزداد ، ولكنني
ما كنت أجهل ذلك على محمل التباعد المقصود ، أو الإهال المنتوى .

رغبت إليه مرة ورجوته مرة ثانية أن يمدني بقماش أو بإذن من
مصلحة التموين للحصول على أقمشة تصلح لثياب الطفل ، فدهشت لما
نفحني بالمال أشترى أنا ما يلزم لطفلي من السوق السوداء ! !

احتملت هذه الصدمة من زوجي الحبيب وكانني رميت بنار السعير .
أخذت أخيط ثياب مولودي وقد بللتها بدموعي ، وأسهرت في خياطتها
حتى ينتصف الليل في انتظار عودة الزوج الحبيب .

ثقل حملي وكدت أنوء بخدمة البيت ، ولكني جاهدت بقدر ما أسعفتني
قواي ، حتى أجعل كل شيء في بيتي على ما تعودّه زوجي الحبيب .
لم يبق للوضع سوى أيام معدودات ، ولكن زوجي الفطن اللبيب
تجاهل الأمر كأنه لا يعنيه . ولما سألته أن يمدني بأى الرأيين أصوب :
ألد في بيتي فأكون مشمولة برعايته ، أم ألد في المستشفى وهو أضمن
لحياتي وأبقى على راحته هو ، أجاب إجابة من يستوى عنده هذا
الرأى وذاك .

كاد الدمع يطفر حمأً من عيني ، ولكني كظمت لوعة تأججت في
صدرى وججياً استعر فيه ، وصبرت حتى لا أوذى جنيناً في أحشائي .
يمت المستشفى وحدي ، وقد ودّعت زوجي بقبلة ناعسة ذكرتنى
بقبلته الأولى ، تلك التي صيرتني من أسعد الناس ، وهامى ذى قبلته
الناعسة تنعق منذرة بشقاء قريب .

أدركنى الخاض ، فأخذت أتلوى من الوجع وأصرخ من الألم . لم
ألد برى أستمد منه الخلاص ، بل استصرخت زوجي العزيز ، ولجأت
إليه أستدعيه بنداء من روحي ، لا لأنى أشرفت على الموت لعسر في
الولادة ، بل ليستقبل ولده وهو ثمرة حب طاهر مقدس .

سمعت صرخة مولودي الأولى ، فكدت أجن من الفرح ، وقد نسيت
آلامى كلها .

آه ! كم تمنيت أن أتبين أذكر مولودي أم أنثى ، ولكني أغمى
على ، وصرت لا أحس بما كان يدور حولي .

قالت لى الراهبة المواسية : إن زوجى سأل عنى بالتلفون وإنه قادم لزيارتى ظهر اليوم ، وقالت لى كذلك إنها لم تلمس فيه فرحة الوالد بولده البكر .

رغبت إلى الراهبة أن تكون إلى جانبي ساعة حضوره لزيارتى . وعند ما حضر حيانى بابتسامة عريضة باهتة لا حياة فيها ، وقد صدّه وجود الراهبة بجانب سريري عن تقبيلي . سألتنى عن صحة مولودى وهأتنى بسلامتى .

لقد اعتذر عن غيابه الاضطرارى بحجة أن الحكومة انتدبته لعمال بعيد عن العاصمة لم يتمكن من الإفلات منه ، وأنه عائد فى الغد إلى إتمامه ، وأن ظرفه الخاص هـذا سيقهره على الغياب مدة قد تطول إلى عشرة أيام أو أكثر ، وقد نصحتنى بالبقاء فى المستشفى مدة شهر أستعيد فيه صحتى بالتزام الراحة ، وهمس فى أذنى أنه دفع الأجر كاملا ، ولم يبخل على الخدم بإكرامية تفرحهم .

تعمدت السرور وشكرته على حسن اهتمامه بى .

رغب إلىّ قبل انصرافه أن يرى الطفل ، فقالت الراهبة الحبيثة : إنه يغط فى نومه فلم يلبح فى رؤية ولده .

كدت أنفجر فأفيض بكلام يظهر آلامى المكبوتة ، لولا نظرة من الراهبة المواسية استوقفتنى فألجت لسانى .

عجبت لأمر زوجى وانقلابه فجأة من حال إلى ضدها . قلت لا بد من حدث خطير لا شأن لى فيه صيره إلى حاله تلك وقد بيتُ النية ،

رغم النفاس ، على استكشاف سريرة زوجي .
 مضت عشرة أيام على تلك الزيارة لم أنقطع خلالها عن مطالعة
 الصحيفة التي كانت تنشر أخبار زوجي أكثر من غيرها من الصحف .
 آه لو عرف المسكين أنه هو الذي علمني قراءة اللغة العربية وكتابتها ،
 وأنى ما أقبلت على تمامها إلا لأقرأ أخباره وحده ، وأن الخبر الذي قرأته
 اليوم هو الذي فسّر لي حال زوجي وأوضحها لي بأجلى بيان ! !
 أعرف أن زوجي يدين يدين سمح يبيح تعدد الزوجات ويسر
 الطلاق ، وأعرف أنى تقبلت دينه حباً له ، وما عرفت قط ، قبل الآن
 أن شريعة قومي ، وعادات أهلي متأصلة في نفسي إلى الحدود التي يظن
 بها أنها طبيعية لا مكتسبة ، وأن الشرك بالله أهون على قلب امرأة
 مثلي لا تفقهه للتحقيقات العقلية معنى من احتمال مشاركة ضرة .

لقد عزمت على إتيان عمل حاسم يزيل كل عقبة في طريق زوجي
 ويمهد له حياة جديدة هنيئة . ولكن كيف الوسيلة إلى تحقيق هذه الأمنية
 دون أن أعرض موقفي إلى تصفية نهائية بغيضة ؟ أريد حقيقة اختزال
 طريقي ، ولكنى أنكر تصفية حياتي الزوجية ، لا من إفلاس لأنى
 ما زلت في مستهل الصبا ، بل لأنى أحب زوجي .

لقد وقفت في مفترق الطريق حيرى هادئة ، قلقة وجللة ، مقدامة
 متخاذلة ، لا أستقر على رأى ، ولا أبت في أمر . وأخيراً يمت دار
 القنصل اليونانى ، فلفقت لرجالها قصة من نسج الخيال استدرت عطفهم
 علىّ ، فرضوا إعادتي إلى بلدي .

ثم سكتت هنيهة ريثما كفكفت دموعها وقالت :
 ها أنا ذى أقف بين يديك يا سيدتى ، لأسمع منك الحكم ببراءة
 طفلي من وصمات الإنسان ، تلك الوصمات الباطلة التي تخدم الشر ، وتبذر
 الإثم ، ويتطوع واصموها في خدمة الشيطان .

ستقلنى الباخرة بعد غد يا سيدتى ، وإني أودعك فلذة كبدي ، وقد
 أودعت زوجي قلبي من قبل ، فليقدر الله لابني ما يشاء ، وليفعل زوجي
 بقلبي ما يشاء ؛ لأنني كنت له وفيه منذ عرفته ، وسأحتفظ بوفائي لحبي
 حتى النهاية » .

واستطردت مديرة الملاجأ قائلة : إن الطفل بهي الطلعة يا سيدى ،
 بسام الثغر ، إن بكى خلت أنعاماً من ألحان الملائكة .

..... دفعت الباب صبية في ثياب بيض

تحمل بين يديها طفلاً قدّمته للسيدة مديرة الملاجأ .

هوذا الطفل الوديع يا سيدى ! ها كه يا سيدى ... انظر إلى وجهه
 فهو يبتسم ... يا لله ما الذى يبكيك يا بنى ؟ ... إنك تصرخ ولا شك
 صرخة الفرح بحياتك السعيدة المقبلة ، وإنك ستكون خير ولد لخير والد .
 نهض الرجل وهو لا يقوى على كفكفة دموعه ماداً يديه للطفل
 وقال :

تعال يا ولدى الحبيب فإني سأسكب فيك روحى ... ليغفر الله
 لوالدتك ... وأسأله تعالى أن يغفر لى .

obeykandl.com

الجمعة
صلى الله عليه وسلم

obeykandl.com

ما كذت أبتعد بضمة أمتار عن المقهى حيث كنت جالسا مع طائفة
من أصدقائي حتى شعرت بقبضة يد رقيقة تستمهنى ، التفت فرأيت واحداً
من أوائك الأصدقاء الجلاس ، فلمحت في نظراته شبه استعطاف ،
فقال لي بلهجة لا تخلو نبراتها من قوة : أريد أن أسألك بشرط أن تجيبني
بصراحة : ما هي عقدة القصة ؟ وما هي الحبكة ؟ ما هو العرض والمكرة
والوحدة التي تكلمت عنها فقلت إنها عناصر حيوية للقصة ؟ أنا يا صديقي
أحسن كتابة القصة ، أو بعبارة أخرى أحسن خلقها فوراً ، وأبتدع وقائعها
وأشخاصها ابتداءً ، وأجذب المستمع إلى الانتباه إلى ، ولا أتركه إلا
بعد أن أشبعه وأمتعته بلذات من الخيال المزوق ، والتلفيق الموشى بألوان
من حسن الكلام ، أليس هذا هو الفن ؟! واستطرد قائلاً : ما دام الأمر
كما ذكرت لك ، وأزعم أني ذكرت الحقيقة الواضحة عن البناء الفني ،
فما هي إذن العقدة ، والحبكة ، والعرض ، والمكرة ، والوحدة التي
تكلمت عنها ؟ وأحسب أني فهمت من مجمل كلامك أن لا قيمة للقصة
الحالية من هذه الخصائص ، فهل هذا صحيح ؟

أعجبني ما يبدو على وجه هذا الشاب من مسحة الطفولة ، ورفقت به
وبأمثاله ممن يتغالبون في الآداب والفنون ويستهنون بها كأنها مهلة
التناول ، فقلت :

تعال معي إلى النادي ، فهناك أستمع إليك بانتباه وأجيبك إلى طلبك عن رضا .

قال : في الجلوس في المقهى متممة للنظر لا جود لها في الأندية .

فقلت : ليس بي ميل إلى شغل الذهن بمراقبة المارة ، وليس بي ذلك الظمأ إلى المرأة الذي ينتابكم أنتم يا جلاس المقاهي .

قال : نحن على غير مذهبك الفردي يا صاحبي ، نحن جلاس الأفاريز ، رواد المقاهي ، نتضور جوعا ، نتلهف على الفتاة من فتاة ، أو نظرة من امرأة . ألا تحس مثلنا بالجماعة الجنسية وقد طغت واستعصى أمرها على وزارة الشؤون الاجتماعية ؟

ابتسمت لكلام هذا الشاب المتحمس ، فأخذته من يده فمشى معي . فلما دخلنا المصعد الذي سيرتفع بنا إلى الدور العاشر من البناء قال : أنت مصرّ على الجلوس في النادي وكر الكهول والشيوخ من أرباب المال ؟ حسن ، سأجلس معك في هذا النادي المرتفع المترفع عن الناس ، وأقص عليك قصة من صميم الواقع ، وأنا قمين بأنك ستشهد لي ببراعة الارتجال ، وبأن القصة هي القصة ، أعني أن العقدة والحبكة ، والفكرة والوحدة ، إن هي إلا افتعالات ، أما إذا كانت شيئاً غير ذلك فستداني عليه .

ابتسمت أيضاً لهذا الادعاء الجديد الذي يمثل ادعاءات الشبان وهم يتوهمون أن الأمور وفق أمرجتهم الرخوة لا وفق الواجب في معرفة الأصول ، وقلت لصاحبي بعد ان انتحينا ناحية في النادي مزدانة بأصص من الزروع دائمة النضارة الربيعية : يحسن أن تجلس هنا

فتقص عليّ قصة شعرية يرتجلها خيالك الخصب وينتزعها من صميم الواقع كما قلت .

- أرجو ألا تهزأ بي . استمع إليّ :

« وضعت حقائبي في المكان المعدّ لها ، وجلست على المقعد الذي احتجزته في عربة القطار ، ثم التفت لأرى رفاق الطريق الذي سأقطعه بمرحلة واحدة من مرسيليا إلى باريس ، فلقيت سيدة تتألق نضارة وشباباً ، وضّاحة المحيا ، بادية الفتنة ، وسمعتها تقول للرجل الجالس إلى جانبي : « ألم أقل لك إنه غير فرنسي ، إذ لو كان فرنسياً لكان حياناً بإشارة بسيطة ساعة دخوله ، ولما ألماه المودعون ولا المشاغل الذهنية عن أداء التحية الواجبة » .

وسمعتها تقول لها : « ألم لا تقيمين للتقاليد والعادات اعتباراً ؟ لماذا تفرّضين على غير الفرنسيين الأخذ بعاداتكم وتقاليدكم ، وقد تكون هذه التقاليد التي تزينها حميدة عندكم مستهجنة عند بعض الأقوام ، وربما كانت مستقبحة عند أقوام آخرين أمثال الإنجليز مثلاً الذين لا يحتمون من لا يعرفون مهما كانت الظروف والمناسبات » .

فهمت من لهجة الرجل ومن قسّيات وجهه ولون بشرته أنه أميركي يحسن التعبير عن خواطره باللغة الفرنسية ، وكان يلفظها صحيحة ولكن ببطء ممضّ أوجع نفس السيدة الفرنسية الجياشة ، وأدركت أن مدار الحديث يدور حولي لأنني أخذت مكاني في عربة القطار ولم أحيّ من فيها ساعة دخولي !

هل أدخل في القضية طرفاً ثالثاً ، على حد تعبير المحامين ، وهي قضية خاصة بي برغم قيامها بين السيدة الفرنسية والشاب الأميركي أم ألزم الصمت وأحترم سجية نفسى وعادات قومي وأسكت عن الكلام مع من لا معرفة لي به ؟ أليس في ذلك تطفل أو تخط للعرف ؟ أو ليس هو وسيلة سهلة مؤدية إلى التعرف بهذه السيدة الجميلة المغربية ؟ أو ليس في ذلك فائدة للوصول إلى ناس يطيب لي أن أحذثهم عن قومي وبلادى ، وقد لا يعرفون عنهم شيئاً أو يعرفون ما تنقله لهم الدعاية المغرضة ، والفكر الاستعماري ، وجهالة بعض الكتاب الطائشين ؟ !

جالت هذه الخواطر في ذهني والسيدة والرجل ما زالوا يتحاوران ويتناقشان : هي تصرّ على أن عادات قومها مرتكزة على قواعد آداب الاجتماع ، وهو ينكر أن للآداب الاجتماعية قواعد ثابتة . هي تقول إن قواعدها الفن والذوق ، وهو يقرر أيضاً أن مباءات الفن هي معارض النحت والتصوير ودور التمثيل وبعض دواوين الشعراء وكتب الأدباء والروائيين ، وأن الذوق مسألة فردية وإحساس ذاتي . هي تغضب من تعمله إهمال ذكر المرأة في أنها الفن كله باعتبار أنها الباعث الأول على استفزاز منسكات الفن والإلهام الفني . وهو ينكر عليها بعض دعواها ويؤيد بعضها ويقول : « إن المرأة موحية حافزة ، وليست هي بشيء في صميم الفن » !

هي تصرخ قائلة : إنكم معاشر الأميركيين لا تتذوّقون الحياة إلا عن طريق الدولار ، وإنكم ... وإنهم عبدة الدولار فقط . أليس كذلك

يا مسيو ؟ والتفتت إلى تدخاني في هذا الجدل .

كاد يرتج على حين فاجأتني بسؤالها وهو استنجداً بي أكثر منه
سؤالاً ، ولكني تماكنت نفسي وقلت :

إخال أني كنت السبب في هذا الحوار الذي بلغ بكما إلى هذه
النتيجة . فهل تسمح لي سيدتي أولاً أن أحييها وقد آليت على نفسي
مجاراة الفرنسيين وتقليد هم ما دمت في بلادهم ، ثم أدخل في الحوار ،
لا كفضولي متطفل قد تعرضه صفاقته لسماع ما يؤدي إباء النفس ،
بل كرفيق الطريق الذي يحرص على إبقاء أطيب أثر في نفوس رفاقه ؟
هالك يدي ! أما أنا فإدام « فرانس » ، وصديقي هذا هو مستر
« أميركا » . وأنت يا صديقتنا على هذا القياس من تكون ؟

رطبت شفتي بقبلة من يدها البضة وقلت متابهاً على المنوال نفسه :
أنا يا سيدتي مستر « إيجبت » .

إيجبت ... إيجبت ! رددت السيدة كلمة إيجبت وهي تلفظها شمطوطة
عمدودة بتودة كأنها تعود بذكريتها آلاف السنين إلى الوراء تستعرض
بلحمة واحدة آثار الماضي السحيق الباقية على الدهر وتقول : أنت إذن
مصرى ؟ ! .

نعم يا سيدتي أنا مصري من سكان القاهرة ، وأنت فرنسية ... فقاطعتني
قائلة : « فرنسية باريسية » وصديقتنا أميركي من واشنطن أو نيويورك
وليس قطعاً من هولاء . وها نحن أولاء الثلاثة نمثل ثلاثاً من قارات عالمنا ،
ونمثل أيضاً أعرق مدنية عرفها التاريخ القديم وهي تتوثب الآن للعودة

إلى الحياة ، وأغرق مدنية حديثة ستتغلب عليها مدنية أحدث منها ، ومدنية جديدة في العالم الجديد قد يكون لها طابع خاص سوف يتحول بسرعة إلى طابع يعم العالم . وأردفت كأنها تتدارك فوات فرصة : نعم ! نعم سيكون الدولار طابع أميركا الخاص ، كما يحاول الروس أن يجعلوا الاقتصاد أساساً لنظام العالم الاجتماعى الجديد . قالت السيدة كلمتها عن الدولار ، وضحكت ضحكة عالية لها رنة الأوتار المتزنة والنغمات الرقيقة .

قلت : العالم يا سيدتى لا يقوى على السير فى نظام اقتصادى محض بل يستحيل عليه المضى فى طريق السعادة البشرية بغير دوافع الروح .

— هذا صحيح يا مستر إيجبت ، ولكنى ألاحظ أن مدام فرانس

تتحدثنى فى كل ما أقول . فإذا كان ذلك يلد لك يا سيدتى فلا أمانع أنا الأميركي أنى فى تقرير الدولار طابعاً لبلادى ، وهو بالفعل الإله الذهبى الموحى إلى كل الناس كل الرغبات والشهوات .

— المرأة يا مستر أميركا ، أرجوك ألا تنسى المرأة ، بل أحتم عليك

عدم نسيانها ؛ لأنها الروح الذى تكلم عنه مستر إيجبت ، ولأنها وحدها الموحى لكل الناس كل الرغبات والشهوات — على حمد تعريفك أنت — بل هى وحدها موحية الحياة والحب .

— لو كل النساء كن مثلك يا سيدتى لما ترددت فى الاعتراف بذلك

ولكن . . .

— دغ يا مستر أميركا قرض المديح ونظم الثناء والإطراء لأنها من

طبائعتنا الأصيلة التى لم تقتبسوها عنا بعد ، وهى وإن كانت ترضى غرور

المرأة وتدغدغ زهوها ، لا تقوم مقام الحقيقة التي لا يحصى عن الاعتراف
والجهر بها ، وهي « أن المرأة هي الإله الوحيد الموحى إلى كل الناس
معنى الحياة والحب ، ولذة الوجود ، والفرح به على الأرض ، ولذة الألم
والحزن أيضاً » .

قال مستر أميركا موجهاً إلى السؤال : هل تعترفون بألوهية المرأة
في مصر ، وبأنها مصدر إلهام يوحى إلى الناس معاني الحياة كما قالت
مدام فرانس ؟

بلعت ريتي وتكلفت ابتسامة رضا وقلت : ليتك يا مستر أميركا
تضع السؤال في الصيغة التالية : هل بلغت المرأة الأميركية درجة من الرقي
سمت بها إلى مقام يجعل الرجل يتطلع إليها فيه كما نتطلع كلنا إلى المرأة
الأوربية باعتبار أنها الملهم معاني الحياة والدافع إلى الشعور بالفرح بها ؟
لقد نجحت في تحويل الدفة ، كما يقال في تعبير النوتية ، وفي رفع
الأثقال عن كتف المرأة المصرية والرجل المصري ، وفي إزاحة الألم عن
نفسى من قول الحق ، وقد أفلحت في ذلك : إذ ما كادت أنتهى من
تحرير السؤال وتوجيهه إلى مستر أميركا ، حتى انبرت مدام فرانس
تقول : « تخواني معلوماً حق القول بأن المرأة الأميركية أخذت تدرك
قدر نفسها ، وستنجح في صيرورة ذاتها مصدر حياة أفعال في روح الرجل
الأميركي من الدولار »

ما كادت تنتهى مدام فرانس من قولها حتى رأيتنى مدفوعاً إلى
الكلام فقلت معقياً :

« سوف تصير المرأة المصرية ذاتها مصدراً لإلهام الرجل وإذكاء روحه متى خلصت من شوائب الطفرة ، وبعد أن ترغمها الآلام على التفكير في ماضيها ومستقبلها بالقياس إلى حاضرها المضطرم بنيران الانتقال . »

— صحيح ما رمزت إليه بلباقة يا مستر إيجبت عن المرأة من أنها في طور الانتقال الذي يعقب الانقلاب الاجتماعي . ويمكنني القول إن بواكير الانقلابات تكون من النساء وفي النساء كما تكون بواكر الثورات وطلائعها من شرارات يقدحها طلاب الجامعات بإيجاء غير مباشر من أرواح يقظة عاملة هادئة .

سكت محدثي الشاب وكاد يطول سكوته ، ولكنه رفع رأسه ونظر إلى نظرة استفهام واضحة . فقلت له ببرود : ثم ما ذا ؟
 ما ذا !! نعم نعم ! كدت أظن أني أنهيت القصة ، ولكنني نسيت فصلها الثاني .

دوى رنين الجرس يدعو الراغبين في الطعام من ركاب الدرجة الأولى إلى تناول العشاء ... وكان الكلام حتماً لمدام فرانس التي أمرت أحد النادل (جارسون) بتهيئة مائدة اثلاثة أشخاص ... فكان طعام وكان شراب ، بل كان شراب وطعام وكلام وشعر وتوريات ورموز وتلميحات ومقارنة بين المرأة المصرية وأختها الفرنسية والأميركية . وكادت تضطرم ثورة مدام فرانس لتوهمها أن أختها المصرية أوفر براعة منها في إرضاء الرجل . . . !

عدنا إلى مقاعدنا وقد أذبل الشراب أجفاننا ، وأخذ قوة النضال
السكلاحي فينا ، وأذكى بطبيعة الحال قوة النظر الطويل والإعجاب الذي
لا حدّ له ، والافتتان بهذه المرأة المملوءة حيوية وجمالا ونضارة وسحرأ ،
والممددة أمامنا على مقعد عربية سكة الحديد تحاول النوم على هدير
القاطرة وصفيرها وقرقرة العربات .

لقد أحييت الليل أنا ورفيقي الأميركي نتجادث همساً حتى لا نزعج
السيدة النائمة . وكان طبيعياً أن نختلف في الرأي وأن نتحاور ونتجادل
ثم نعود إلى صفائنا الأول ، وكان بديهياً بحكم الرغبة الكامنة ألا
نختلف أبداً وأن نتفق اتفاقاً تاماً على ألا نعيد الغطاء كلما سقط عن
جسم هذه المرأة الفاتنة المتناومة ، وكان عذباً على أسمعنا قولها : يا لكما
من شابين شقيين !

سكت محدثي مرة ثانية فلم أدعه يتمهل ، بل قات له بنبرة جافية :
ثم ماذا ؟

صدمه سؤالى وكاد يتخاذل ، ولكنه تجلد وقال :
طلع الفجر ، ثم تفجرت أشعة الشمس ، وانجالت عروس بركة فرنسا
بشوبها الزرجدى النضر . وبلغنا باريس ، فافترقت القارات الثلاث ،
وراح مستر أميركا ومستر إيجبت كل فى طريقه ، وراحت مدام فرانس
تنثر القبلات وتقبل القبيل من مستقبليها على إفريز المحطة .

ربت على كتف محدثي وقلت له ببشاشة أذهبت وقع الصدمة الأليمة
التي صدمته بها عند سؤالى إياه تنمة القصة بقولى : « ثم ماذا ؟ » ليست

قيمة القصة يا صاحبي في المادة التي تتألف منها ، ولا في كيفية ترتيب تلك المادة ، بل قيمتها في السكيفية التي تؤدي بها وفي عرضها عرضاً خاصاً بمهارة فنية ، بالتشويق والترغيب ، في صدق الرواية عن الحياة ، مضافاً إليها الخصائص الفنية التي ذكرتها في حديثي مع رفاق المقهى . أما قصتك المرتجلة هذه ، فإنها تماثل حكاية واقعية وقعت لي حين رحلت إلى جزيرة رودس التي انتزعها الظليان من الدولة العثمانية مع بقية جزر الدوديكانيز .

قال : أترجل قصتك ارتجالاً ؟ فابتسمت لسؤال هذا الشاب وقلت :

« ألت الباخرة « إيجيتو » مراسيها ، وأخذ الركاب يتزاحمون ويلتفون حول الضابط المكلف بالتأشير على الجوازات ، هذا يتوسل ، وذاك يطلب ، وذلك يتضرع ، وهذه تتدال ، وتلك تغمز الضابط تستحثه على التأشير على الجواز ، أي على السماح بالدخول إلى جزيرة « الورد » كما يسميها الظليان .

لا بد من الانتظار الطويل ريثما ينتهي الضابط من أسئلة سخيفة كان يخص بها السيدات الجميلات .

اقتعدت مقعداً بعيداً عن الزحمة أنتظر دوري ، وإذا برجل يقترب مني ويقول : إنه مصري مثلي جاء ليقضي فترة من إجازة الصيف في هذه الجزيرة التي قرأ وصفاً لها في الصحف نغال أنها قطعة من جنات عدن ، وإنه ماجاء إلا منساقاً بفعل الدعاية التي أحدثتها الصحافة في نفسه ، في

حين إنه ألف الاصطيفاف في مدن « الكوت دازير » . وأخذ يتكلم عن مصايف فرنسا وسويسرا وإيطاليا وألمانيا بلهجة حارة وانفط عذب وعبارات مختارة من صحيح اللغة ، وكان يدعوني صديقه .

نظرت إلى وجه هذا الرجل الذي طرح على صداقته ، فإذا به يمثل الدمامة بله البشاعة خير تمثيل ، أعمش ، أصرط الحاجبين ، أصلع ، في جبينه وعلى خديه ندوب الجدري ، وفي عنقه أخدود من أثر جراحة ؛ وهو فوق هذا أستاذ علم الزراعة في الجامعة يحمل شهادة دكتور ... وقد أدهشني عند ما قال لي إنه في الرابعة والثلاثين من عمره وقد كنت أظن أنه أكبر من ذلك .

لقد سحرني الدميم بعذب حديثه وطيب بيانه وحسن اطلاعه فانقدت إليه ، فذهبنا بعد أن تركنا الباخرة إلى أول فندق رضيعنا به اعقباطاً وقد أمر الضابط الإيطالي السمج على جوازي سفرنا .

ارتاحت نفسي إلى صداقة هذا الدميم ؛ لأن فيه من جمال الصفات الروحية والخلقية ما يستر تلك البشاعة الواضحة المنكرة ، ولأن خفة ظله ، وحضور ذهنه ، وبراعته في التنكيت ، تلقى ستاراً على دمامته المنقّرة .

اسمع يا صاحبي ! أحسب أن المشوّه كالأحدب والخلع والأعرج وكل ذي عاهة يعتقد أنك ستسخر منه فيبادرك بسخرية مؤلمة . والظريف في أصحاب هذه العاهات أن البارح منهم يمزج سخريته بالابتسام والضحك ، وبذلك يبطن الانتقام بالمرح .

كنت ألقى صاحبي الدميم في الصباح على مائدة الطعام ، ثم ننتحى ناحية في بستان أو حرج بعيدين عن الناس وضوضائهم لنقرأ ؛ وكان رفيقي مولعاً مثلي بقراءة الكتب ، ثم نهود فنتحدث فيما قرأنا . لم أسمع من صديقي هذا حديثاً يخرج عن دائرة الكتب وأسماء المؤلفين . ومن غريب أطوار هذا الدكتور الجامعي أنه يقرأ الأدب ويتذوقه ؛ وله في أدبائنا المعاصرين نظرات صائبات ، وله آراء في كلية الآداب أسكت عن ذكرها ، ولكنه يجهل الحياة ، بجهله المرأة ، وقد قال لي « إنه لا يعرفها ويهرب منها لأنها هبة الشيطان ، وعصا إبليس ، وسمّ الحية . وإنه ما من رجل يطاوع هواه ويساير شهوته فيقترب من امرأة إلا هو ضعيف العقل ممسوس من خبال الغريزة ؟ ! »

ضحكت في سري من ضلال هذا الرأي ، وانتحيت لصديقي عذراً في إبدائه على هذا النمط المخالف لسنة الطبيعة ، وقدرت ظروفه الخاصة التي جعلته ينفّر من المرأة ويتجنّب في الحكم عليها ، ولم يعد الحديث عنها يدور لنا على لسان .

أخذت الوحشة من الوحدة يدب ديبها في نفسي ، والسأم يربن عليها من هذه البلدة الصغيرة الخالية من وسائل التسلية ، والتي لا أنيس لي فيها ولا سمير سوى الكتب وصديقي الدكتور الجامعي اللطيف .

كل ما في طبيعة (رودس) هادئ : البحر والأشجار ، السماء والناس ، والقلوب كلها هادئة أو شبه متحركة ، وقلم رأيت حتى في الفتيات الرودسيات المرحات عيوناً تتطلع إلى القلوب أو ترميها بنظرات

فإن فعلت فهي تتطلع إليها خلسة تشبهها شهوة هادئة ولا ترميها رمية صائبة .

كيف آلف الهدوء وطبيعة رفيقي علي النحو الذي وصفته لك ؟ وكيف لا تتوق نفسي إلى صخب الحياة وقد اتخذت « بيرون » وكل مؤلفاته رفيقاً لي وسميراً ومعلماً في اعتكافي في هذه الجزيرة الهادئة ؟ كيف أجمع بين حياة هادئة فاترة فرضتها عليّ طبيعة وجوذي في هذه الجزيرة الساحرة مع هذا الصديق الدميم عدو المرأة البعيد عن الحياة ، وحياة قلقة حيرى ، صاحبة فياضة تضطرب في صدر رفيقي « بيرون » العظيم وقد سارت عدواها إلى صدري ؟ صممت على الرحيل ... ولكن إلى أين ؟

قال لي رب الفندق إن في أعلى الجزيرة فندقاً جميلاً قائماً على القمة بين أحراج الصنوبر نحسن الإقامة فيه فترة من الزمن ؛ فقطعت الرأي على الذهاب إليه . ومن المدهش أني ماكدت أضع حقيبتى في السيارة حتى رأيت حقائب صديقي الدميم تلتقي في السيارة ، ووجدت هذا الصديق نفسه ينحط في المقعد ويجذبني إليه جذباً وقال : « أتهرب منى إلى الجبال وتتركنى وحدى في هذا البلد الميت ؟ »

قلت : قلبك هو الميت يا صديقي ! إن الحياة هي الحياة التي نعرفها نحن الأصحاء ، أما أنت المريض ميت القلب فلا تعرفها ولا تحس بوجودها . لم يعر فورة نفسى التفاتاً ... وأشار إلى سائقى السيارة أن يسير . ولما كانت السيارة تدرج على شاطئ البحر وتنعرج وتتسلق جبالاتها

مجموعة من حدائق وبساتين كان صاحبي ملتزماً الصمت ، وما كنت أعرف أكان صمته ذلك وسيلة لتهدئة نفسي ، أم لطلب ما رميت به قلبه بالموات ولولا هذه الفرية .

ما أكثر وجوه الشبه بين فندق « الأيل » ويسمونه باللغة الإيطالية « شيرفو » وبين الأديار في لبنان ! سكان الأديرة قساوسة جرفتهم الأقدار إلى هذا المحيط الضيق ، فأخذوا يمنون أنفسهم بمحيط واسع تتحقق فيه الأمان وتظهر الغاية الإلهية من الوجود الإنساني عقب الخلاص من هذا العالم الفاني !

سكان فندق « شيرفو » أكثرهم مرضى ينتجعون العافية في هذه المصححة ، وشيوخ يأملون في العودة إلى الحياة ، حياة الشباب من طريق الاستراحة وطيب التغذية ، وفتية صغار يضيق بهم فناء الفندق ، فيسرحون في الحرج القريب ويمرحون ، وكنت أنا وصديقي الدميم كهر يرضين أو قسيسين ننتجع العافية أو نمنى النفس بسعادة لا نجدها إلا في قراءة الكتب وفي شيء آخر محبوب أكثر من الكتب .

قال لي صاحبي ذات مساء وقد عاد من رحلة في تسلق الصخور :

« لقد وجدتها ، لقد وجدتها » . !! ؟

كانت زبرات صوته تدل في هذه المرة على شعور لم أتبين مثله في

كلامه معي من قبل ، فقلت : مَنْ وجدت ؟ من هي التي وجدتها ؟

ولما لم يجب على سؤالى ولو بكلمة واحدة ، لم أعرتاء التأنيث اهتماماً

لأنى عرفت فيه نفوراً من الأنثى وسمعت حكمه الصارم على كل من

يقترّب منها .

تغيب عني في تلك الليلة فلم أر له وجهاً في غرفة المائدة ولا في قاعة
الجالوس . وفي صبيحة اليوم التالي لمحته يهرول صوب وادي « أبولون »
يحمل هراوة ليلحق بطائفة من النسوة ولم أرها انحدرت فيه قبل .

من أين أقبلت هذه الزمرة من النساء ؟ ما علاقة صاحبي بهن ؟
من هي التي وجدها ؟ هل هي واحدة منهن ؟ لا أدري !

الفندق الذي أقيم فيه محدود مساحة وارتفاعاً ، أكاد أعرف نزلاءه
بملاصحتهم ووجوههم واحداً واحداً ، وواحدة واحدة ، من شيوخ وأطفال ،
كأن عنصر الكهول والشباب لا وجود له ولا حساب ، فن إن أقبلت
زمرة النساء التي لحق بها صاحبي واندمج فيها حتى صرت لا أرى له
وجهاً لا في الصباح ولا وقت تناول الطعام الظهر أو العشاء ؟

نصوت ثوب البلادة ، وطرحت الكتاب جانباً ، وقت أسمى .
هداني السعي إلى فندق ملحق بفندقنا قائم على مرتفع ليس ببعيد
تجسبه غياض الصنوبر عنا ، وتمج فيه الحياة ويطبخ صرح الشباب
بأمواج من السرور ، ورأيت صاحبي الدميم تحف به جماعة من فتيان
وفتيات يقهقهون . تقدمت قليلاً ، وما كدت أدنو منهم حتى أحاطوا بي
وأخذوا ينهالون عليّ بأقوال فيها ضحك ومزاح وعدم تورع في السخرية
من شاب مثلي دأبه القعود والقراءة والنوم ، وآفته الكبرى مصاحبه
رجل تتمثل فيه الدمامة .

أدركت مبلغ تسامح صاحبي معهم في المزاح حتى تجرءوا عليّ أنا

الذى لم يرههم قبل هذه اللحظة ، وكأوا لى بذات السكيل الذى رضى هو به .

أنقذت موقفى بتصويب سخرية لا ذعة إلى جمال أبرز فتاة ، وإلى رجولة شاب مسكين فى الزمرة ، ولم أتعفف عن صد كل مازح أو مازحة بضحكة المستهزى .

شعرت بأنى كدت أعكر الجو ، وأجلب حقد النفوس على ، فالتفت إلى رئيس الموسيقى وطلبت إليه أن يعزف رقصة « الفالس » ، واجتذبت فتاة ليست على شىء من الجمال ، وأخذت أراقصها برشاقة وبراعة ...

تقلبت خمس راقصات على ذراعى ، ولم تكف الجوقة الموسيقية عن العزف لأنى دغدغت كف رئيسها فصار طوع إشارتى .

صفا الجو الذى عكرته بسلاطتى التى ما كان لى محيص عن التوسل بها لإنقاذ نفسى من المأزق الذى حشرنى فيه صاحبى على غير قصد . ولما فرغنا من الرقص تكونت حولى الراقصات اللاتى أعجبين برقصى ، فأخذت أحدثهن حديثاً طريفاً فى فن الرقص ثم فى الأزياء والمواطف ، وما تركت القاعة وقد كاد الصبح يتنفس حتى أيقنت أن سلطانى مد رواقه على الفتيات والسيدات والشباب النازلين فى ملحق الفندق .

لم أنس أن آخذ صاحبى الدميم معى حين عودتى إلى الفندق . ولما انفردنا قال لى إنه انتقل إلى ملحق الفندق ، فعرف فيه فتاة جذابة أذكت بفتنتها الجذوة الكامنة فى قلبه ، وقد عقد عزمه على الاقتران بها وأنه سيتزوجها لا محالة .

قلت : أفى النساء عيلة نظر وحسّ وذوق ترضى بدمامتك
وشناعتك ؟

أخرسنى الخبيث بإشارة فضحكت .

أعدت على مسمعه قوله فى المرأة إنها هبة الشيطان ، وسم الأفعى ،
وعصا إبليس ؛ وحكمه على الرجل الذى يدنو منها بأنه خفيف العقل ،
ممسوس بنخبال الفريرة ، فأجاب :

كان حكمى ذاك قبل أن أصعق بفتنتها .

قلت لذهب إلى فراشك لأنك متمب ، وستتحدث فى النهار فى
أمر زواجك .

قال محتججا : لا ! لا أذهب إلى فراشى ولن أذهب إليه ، لا أطيق
النوم . وارتمى على كتفى كطفل وقال بصوت باك كبكاء الطفل لتمد
أحببت « سمس » بكل جوارحى العطشى ، ما عرفت الراحة منذ عرفت
الآنسة « سمس » ولن يستقر بى قرار حتى أبني بها .

قلت : أجاد أنت فيما تقول أم هازل ؟

رمع رأسه عن كتفى ونظر إلى نظرة استفسار حادة ، فتابعت قولى :
كيف تكون جادا وقد اضطررتى موقف أصحابك من فتيان وفتيات
منك ومنى ، وإمعانهم فى الضحك والاستهزاء بك إلى مخاشنتهم ،
وكانت الآنسة « سمس » هذه إحدى الضاحكات . وهل يشاد بناء
الزواج على غير قواعد مكيئة من الرصانة والجد ؟

قال : مصيبتى الكبرى فى وجهى المشوه الذى يثير الضحك ، ثم

ما شأنى فيمن يضحكون منى فأسخر منهم فأهلهم بالهظة واحدة وأنكرهم
 كأن لا وجود لهم؟ أما الآنسة «سمسم» فما ضحكك قط منى ولا هزأت
 بى . كنت أراقبها وأستشف معانى ضحكها ، كنت أحس نظراتها تهز
 مشاعرى ، وحنوها يظلالى كغمامة موسى الكليم ، وأن شفقتها على قد
 تدفع بى إلى اقتحام الصعاب وتذليلها لأجل إسماعها ، وسأسعدها إذا
 رضيت بى زوجاً لها ، سترضى وسأتزوجها .

قلت أتعرف حكاية الشاب الفلاح مع ابنة الملك التى أحبها ؟
 قال : لا أعرف الملوك والحكايات ، بل أعرف حكاية عرش فى
 قلبى أستوى عليه مليكتى «سمسم» .

قلت : «سمسم» هذه هل سألت عنها ، هل عرفت أهلها ، هل
 كنتها الحب ، هل عرضت عليها الزواج ، هل رضيت بك بعلا ؟
 صرخ فى وجهى صرخة شعرت بحرارتها تغلب دويها وقال : هذه
 أمور أتترك لك تذليلها . أما أنا فليست راغب فقط بل أريد حتماً الزواج
 من «سمسم» وسأرغمها على الرضا بى .

عجباً ! كيف ترغم فتاة على قبول زواج ؟
 قال : يالك من أبله ! لقد لمحت شفقتها بى ترسم فى نظراتها ،
 والشفقة عنصر قوى من عناصر الرضا والحب .

قلت أوافقك جدلاً على استنتاجك ، ولكن هبها ليست على دينك
 فكيف يكون الحل ؟

قال : من منا لا يقدم الدين الانسانى على نواميس الأديان السماوية

وكلها في الجوهر واحد؟

قلت : دستور الدولة والعرف .

قال : أستهن بالعرف وبالشرائع التي تحول دون اتحاد قلبين ، وأدار كتفه وانصرف .

لزمت غرفتي طول النهار التالي ، ولم أذهب إلى ملحق الفندق إلا بعد ثلاث ايام .

لقيتني خصوم الليلة الأولى بل أصدقاءؤها بترحيب ملحوظ ، جعلني أحس كأنهم ينتظرون قدومي ، وغدوت أعاتب إذا تأخرت ايلة عن الحضور .

قيل لي مرة بعد مقدمات وأسئلة عن صاحبي — وقد أطلقوا عليه اسم « ليدرون » تيمناً بالحكمة بالفرنسية معناها « دميم » — بأنه خطب الأنسة « سمسم » من والدتها . وهو يجهل طبعاً أنها حفيدة فلان العظيم ، وقد ذكر اسمه ولقبه ورتبته ، وأن والدته ردت به بلطف ، فلم يأنه لردّها وأصر على البقاء بقرب « سمسم » ، وأنه سيعود إلى مضمرة متى عادت هي إليها ليفتح جدها وهو وليّ أمرها بالزواج . وقالت إحدى الآنسات : نحن منقسمون حيال هذه المسألة إلى قسمين : قسم الآنسات يتنابأ بتحقيق هذا الزواج وسيكون زواجاً سعيداً . وقسم الرجال يستبعد وقوعه ، فأنت إلى أي جانب تنحاز ؟

قلت : ماذا كان رد الأنسة « سمسم » على خطبتها ؟

قلن : قالت إنها ستقول كلمتها عند ما تعرض المسألة على وليّ أمرها .

لم أشأ أن أنحاز إلى جانب المتنبئات المتفائلات لأنهن أقدر من الرجال على استشعار الرجولة ومعرفة ميول المرأة ، ولم أمل إلى المتشائمين الذين استبعدوا وقوع هذا الزواج بين شخصين يمثلان الشيء وضده ، أى الجمال البادى والدمامة الصارخة ، وقد تحاشيت عمداً إبداء رأى فى صاحبي الذى لم أعرفه إلا يوم وصولى إلى جزيرة « رودس » . وقد أعاننى على هذا التحاشي أن رأيت صاحبي مقبلاً مع فتاته « سمس » وكأن قلبيهما يدفعان خطواتهما باتزان فى حين كان فكراهما يسبحان فى جو سماء واحدة

* * *

كان من عادتى فى تلك الجزيرة أن أستيقظ عند الفجر ، أستقبل شروق الشمس عند قمة الجبل أمتع النظر بأبهج وأروع ما رأيت من مفاين يقظة الشمس . وحدث ذات صباح أنى ما كدت أتخطى عتبة حجرتى حتى تقدم أحد غلمان الفندق فألقى إلى كتاباً من السيدة والدة الأنسة « سمس » تدعونى إلى مقابلتها عند ربوة « النبي إيليا » ، وهى ربوة ليست بعيدة عن الفندق تكتمفها أشجار الصنوبر وتحجب الجالسين فيها عن الأنظار .

سيدة مهيبية الطلعة ، يبرز وجهها الذى لا يزال يحفظ نضارته ولونه كضوء القمر ، من بين هالتين من شعر أسود فاحم وثوب أسود يستر أكثر أجزاء الجسم . هذه السيدة والدة « سمس » هى التى دعتنى للكلام معها فى حادث صديقى .

شرحت لتلك السيدة المحترمة العاقلة مبلغ معرفتى بصاحبي الدكتور ،

واعترفت لها بأن لا سلطان لى عليه إلا حق دعوته إلى الاصطبار
والترثيث ريثما ينقضى فصل الصيف ونعود إلى مصر .

قالت : أخشى أخباراً تتسرب إلى مصر تنقل محرفة ، فيتقول
الأشرار عن الأسرة ما لا ترضاه . ودعتنى بإلحاح إلى معاوتتها فى إقصاء
صاحبي عن ابنتها التى شهدت بطيبة قلبه وكريم شمائله ، كما ستعمل هى
من جانبها على ردع ابنتها بالحسنى عن التماذى فى صداقة رجل لم يعرفوه بعد .
لم يكن فى وسمى أن أستجيب لطالب السيدة ، وقد أدركت من
كلامها أنها وإن كانت غير راضية عن صلة ابنها بالرجل فهى غير غاضبة
عليها . وقد صارحتها بأنى لا أطيق أن أباعد بين قلبين يتدانيان ،
ولا أعمل مطلقاً على نصب حواجز بينهما . وقد شعرت عندما فارقتها
بأنها مقدره موقفي وتصرفى .

مدت يدها لوداعى ، فقبّلت تلك اليد ووددت لو ألصق شفتى بظاهر
كفها طويلاً لأبلغها مدى احترامى لها وإكبارى إياها .

السيدة جميلة تستر جمالها بالحزن ، وقد حدثتني عن ابنتها الوحيدة
بلسانين من العاطفة الحنون والعقل الراجح . إنما هى محزونة مفجوعة ،
لا بزهرة من زهرات الحب ، بل بباذر بذور الحب ، بزوجها وهى الوفية
لهده بعد الموت . هى أم ترضى لابنتها زوجاً له بعض مزايا المرحوم زوجها
فى الانكباب على قراءة الكتب .

* * *

لم يعد صاحبي فى حاجة إلى ولا إلى كتبه ؛ فقد تركها لى هدية

المستغنى ، ولم يكن ظرفي الخاص يسمح لى أن أندمج بنزلاء ملحق الفندق وجلبهم أعزب دأبه التصابي والتفازل .

ما أكثر ما يلاقى يا صاحبي ، من العسر شاب أجم بالزواج في سن مبكرة قبل أن يتفتق ذهنه للحياة ! وما أشد هزال الحياة في نظره إذا داهمته بالبنين قبل أن يشتد ساعده للكفاح ! وما أثقل قيود العرف وأغلال العادة على قلبه إذا ألزم نفسه التقيد بها والخضوع لها ! هكذا كان حالى بين نزلاء الفندق .

أصخت لنداء الواجب يهيب بى أن أعود إلى زوجتى وأولادى ، فلبيت . جمعت حوائجى فى حقائى ، وركبت سيارة أوصلتنى إلى ميناء الجزيرة ومنه ركبت البحر إلى الأسكندرية .

صمت هنيهة ريثما أستريح وأشعلت لفافة تحمّض الدهن على الصفاء والاستذكار ، وإذا بالمصغى إلى حكائى يسألنى بلسان الرجل الخبيث ولهجة المستحث : « ثم ماذا » ؟

ابتسمت لسؤاله ابتسامة خفيت عليه معانيها وقلت : انصرفت أعوام ثلاثة لم أر صاحبي الدميم فى خلالها ، ولم أسمع إلا خبراً واحداً نشرته الصحف ، خبر استقالته من الجامعة وانصرافه إلى أعماله الزراعية . لقد أكبرت هذه التضحية من دكتور يدرّس فى الجامعة فى سبيل الاستقلال والحرية ، فان كثيراً من الناس يؤثرون عبودية الوظيفة وقيود النفس على الحرية .

حدث فى أمسية أحد الأيام ، وأذكر جيداً أنه كان اليوم الثانى

والعشرين من شهر ديسمبر ، أن اقيت مصادفة رجلا يشبه صاحبي
الدميم في متجر شيكورييل ، ولكنه لم يكن دميا ، ولا أمرط
الحاجبين ، ولا أعمش أحمر الجفون ، غير أن ندوب الجدرى وأثر
الجراح في عنقه كانت لا تزال باقية كما عرفتتها .

زالت حيرتى بإقبال الرجل علىَّ بحمينى بمودة واشتياق ، وقال
مداعباً : لم يعد منظرى يفزعك لأنى أتقنت « التواليت » أليس كذلك ؟
قلت : من الفنان البارع الذى جعل من « الفسيخ شربات » ؟
قال : هى .

-- هى من ؟

— تلك التى وجدتها فى رودس .

— أتعنى « سمس » ؟

— هى بعينها

— هل عند « سمس » صالون « مكياج » ؟

ضحك صاحبي وقال : لا داعى الآن إلى إطالة الكلام ، سنطلعك

الليلة على كل شىء .

قلت : نون المتكلمين من تعنى ؟

قال : دع التشوف وحب الاستطلاع ؛ ففى هذه الليلة تعرف كل

شىء تهمةك معرفته ويسرك خبره . أما الآن فأنت أسيرى وان يطلق

سراحك إلا بعد أن ينتصف الليل ! أفهمت ؟ أنت أسيرى فلا داعى

إلى السؤال ولا إلى الجدل أو الاحتجاج .

وقفت كالمبهوت ريثما ابتاع صاحبي حاجته من المتجر ، وزايدت دهشتي حين دعاني إلى ركوب سيارته ، ولقد ألفتها تشغل نصف شارع فؤاد الأول عرضاً ، وقد درجت بنا إلى بيته وهو « قبيلا » جميلة في الجزيرة تحف بها حديقة بأسقة الأشجار . أما الدهشة الكبرى فهي تلك التي اعترتني حين مقابلتي « سمس » وجهاً لوجه واندفاعها نحوى تحييني بلهفة ومحبة كما لو كنت أختها .

لم تعد « سمس » تلك الفتاة النحيفة الضامرة التي عرفتها في فندق « شيفرو » تقفز بين أشجار الصنوبر كالغزال ، بل اكتمل جسمها واعتدل قدها ، وبرزت أنوثتها كأحلى ما تكون في المرأة .

قالت وقد أخذت يدي بيدها : تعال أرك منزلنا وقد تعاونت أنا وزوجي على تنسيق أثائه وترتيبه ، ثم أحدثك كيف تمّ زواجنا . مشيت معها أتفرج على حجرات « القبيلا » المنسق فرشها ببراعة وذوق فني ، ووقفنا طويلاً في غرفة المكتبة وهي عامرة بألاف الكتب ، فقالت :

هذه الخزان (الدواليب) خاصة بكتب الزراعة فلا أدنو منها لأنه لا شأن لي بها ، وهذه الرفوف للكتب التي أشترك مع زوجي في مطالعتها . وكثيراً ما نجلس في حديقتنا ، كما كنت أنت تجلس معه في رودس ... تقرأن ، وكنت أنا والبنات أتراقبكم من بعيد فنضحك من اجتماع ... النقيضين .

قلت : أي نقيض بين زوجك وبيدي ؟

قالت : إهمال مطلق من ناحية زوجي في هندامه و بزته ، وإصلاح رأسه ووجهه ، يقابل عناية تامة من ناحيتك في كامل مظاهره .

فتح الباب في هذه اللحظة ودخل منه زوجها يحمل رأسه الأصم وحاجبيه الأمرطين اللذين قل الشعر فيهما ، ويلبس سروالا قصيراً وقد برزت ساقاه الشعراوان ، وينتعل حذاء سميك النعل ، وفي يده عصاً كأنها جذع شجرة وقال : « هكذا كنت » .

قلت للسيدة « سمسم » وأنا كالفرع : كيف تخلصت من هذه الدمامة الصارخة ؟

قالت وهي تبتسم : علمته صناعة « التواليت » . ثم التفتت إلى زوجها الذي كان يقفز كالقرد ويأتي بإشارات مضحكة وحركات طفولية وقالت له : أتقنت تمثيل دورك كما كنت في رودس ، فاذهب وغير هندامك استعداداً للعشاء .

قال محتجاً : لا عشاء قبل « الأبرتيف » .

قالت : هو ذاك مقبلات شهية .

عدنا إلى الصالة وكانت الدهشة مازالت تغشاني . فلما جلسنا قالت لي السيدة « سمسم » : لقد تم زواجنا على خير ما رمت . اقتنعت والدي برضاي عن الرجل الذي انفتحت له مغاليق قاي فقبله شريكاً لحياتي ، ثم أظهرت مثل هذا الرضا للمرحوم جدي الذي كان ولي أمرى ، ولم يعترض إلا على مسألة واحدة حل عقدها زوجي العزيز بالانتساب إلى ديني . وأصارحك بأني ما كنت لأبه لمثل هذا الأمر أو أعيره التفاني

لولا أحكام الشريعة ، أحكام الدين المنزل من عند الله ، ولم نراع دين الحب الذى هو الله .

صممت هنيهة ثم قالت : أحس فى أعماق قلبي أن الأديان كلها تستمد قوتها من روحانية الإنسانية ، فلم لا نكون كلنا إنسانيين فى الزواج وهو روحانى فى الأصل ثم غريزى فاجتماعى ؟ !

ثم قالت : اتفقت أنا وزوجى على أن ندع ولدنا على طبيعته يختار سبيلا يواثم عقله ويتفق مع روحانيته ، وقد آلمنا على أنفسنا أن نرعاه كأنسان . وهكذا نكون قد رفضنا أيدينا من المشكلة الاجتماعية التى سوف تحل عقدها الأجيال المستنيرة المقبلة بعد أن بذرنا بذورها ؟ !

أقبل الزوج لابساً حلة « سمو كنج » ، فقامت السيدة ولم يطل غيابها ، وقد عادت بعد أن نضت ثياب البيت واستبدلت بها ثياب السهرة وقد برزت هى وزوجها كالأنجليز الاستقرائين . واذ كنا فى طريقنا إلى غرفة المائدة قال لى زوجها مداعبا : انظر كيف تمثل أنت الدمامة الآن بهندامك كما كنت أنا أمثلها بوجهى ورأسى حينما تعارفنا فى رودس ! كان حديثنا ونحن على مائدة الطعام يدور حول الدمامة والحسن وقد اختلفت كما تنوعت وجهات نظرنا فى تعريفها ، وقد كانت السيدة « سسم » أقدر منا وأصدق فى الحكم عليها من وجهة نظر المرأة ، فقالت : الدمامة هى فى الوجه المييت ، والحسن فى الوجه الحى . فالوجه الذى تموت فيه التعابير وتنطق فيه معانى النفس هو وجه دميم برغم تناسب قسامته ؛ أما الوجه المعبر الذى تبرز فيه كل المعانى النفسانية فهو الوجه

الحسن برغم التنافر في قسماته .

أما الجمال ، وإن كان تعريفه نسبيًا ، واختلاف النظر إليه واجب بوجود تنوع الأذواق والميول ، فهو في نظر المرأة رجولة في القسامات ، رجولة في الصوت والحركة والإشارة ، رجولة في البت في الأمور وفي تصريفها . ولا شأن لي في وجهة نظر الرجل في تعريف جمال المرأة ؛ لأن أكثر الرجال لا يعرفون ما هو الجمال ! والجمال في المرأة سر بل أسرار لا يعرفها حقا إلا الخبثاء من الأدباء والشعراء ورجال الفن .

ضحكت أنا وصديقي ضحكة الرضا عن تفسير هذه السيدة معاني الجمال على هذا الشكل البارع ، وأخذنا نشرب ونأكل . وإذا كنت في طريقى إلى البيت كنت أحس بأنى سكران أتروح من الفرح . وما برحت يا صاحبي أزور هذه الأسرة السعيدة لأفرح بمشاركتها في عيدها في الليلة الثانية والعشرين من شهر ديسمبر من كل عام .

* * *

نظر إلى صاحبي نظرة طويلة ساهمة ، ثم مديده فصاحفنى وانصرف دون أن يقول كلمة واحدة . وبعد ليلة جاءنى هذا الشاب وكل قسماته تطلب الاستفهام والاستيضاح ، وقبل أن يسلم علىّ قال :

أستاذى المحترم ، أين عقدة القصة وكيف حللتها ؟ لقد أذهلتنى عن العقدة فبر بك أرشدنى إليها .

قلت وقد عملت جفوة المتشرد ، اذهب إلى الدميم ، بل اذهب وسل « سمس » إذا شئت .

obeykandl.com

obeykhalid.com

بکالید
ہیروئی

obeykandl.com

أقسم لك يا سيدتى أن زوجتى قد أخذها الخاض وأصبحت في حالة تستوجب حضورك... وسمعتها تقول بصوت عال كاد يترخ أذنى فنحيت سماعة التليفون : « قلت لك لا تدعونى إلا متى صارت المدة بين الطلقة والطلقة عشرين دقيقة على الأقل ، أفهمت يا حضرة...؟ عشرين دقيقة ! »

حسن يا سيدتى فتجية سأكلك . . . وإذا بها تصرخ وتقول « أنا الدكتور فتجية لا السيدة فتجية » ولوت شدقها فجرج الصوت معوجاً مائماً متطراً كما أنه صوت عجوز هتاء تأكلت أسنانها ولم يبق سوى جذورها النخرة .

أدرت قرص التليفون مرات أستحث السيدة الدكتور على الحضور ، وأضرع إليها أن تسرع لأن الطلقات صارت متقاربة لا يفصل بين إحداها والأخرى سوى دقائق معدودات ، وإنى أخشى العاقبة وعقابيل الطوارئ المفاجئة ، خصوصاً أن ليس فى البيت سوى حماتى ، وهى عجوز إن كانت ولدت مرات فهى بطبيعة الحال لا تحسن التوليد . وأخيراً حضرت الدكتور المولدة ، وما كادت تجاوز مدخل البيت حتى سألتنى عن الخادم ، فقلت لها إنى صرفته فى المساء ولن يعود إلا فى بكرة الغد .

قالت بحنق وقد فاحت منها رائحة شراب اختمر فى جوفها وطفى على

رائحة القرنفل التي كانت تمتصه للتستر : أريد مني أن أترك سيارتي نهياً
للصوص الدواليب (العجالات) تلقاء عشرة جنهيات أقبضها أجراً
للولادة ؟ لا يا سيدي يفتح الله ! وهت أن تعود ولكنها التفتت إلى
تقول : نمر بواب العمارة يحرس سيارتي وأنت المسئول عنها أو عن
أطرها إذا سرت .

ناديت البواب ونهته إلى مراقبة السيارة وعدت على عجل ، وإذا بي
أرى السيدة الدكتور خارجة من غرفة زوجتي تقذفنا بأشنع الشتائم ،
وتعجب من جهل أناس مثلنا يدل مظهرنا على أننا متعاملون في حين أننا
من أجهل الأميين ، وقد هزت ساعدها في وجهي وقالت : زوجتك
يا هذا الخلق ستلد بعد شهر أفهمت ؟ ! زوجتك ستلد بعد شهر يا ... !
وخرجت ورأيتها تهبط الدرج كأنها أرنب تقفز ، ولم تشأ أن تسمع مني
كلمة واحدة ولا أن تفهم أن « كيس الماء » قد انفجر ، وأن الولادة
واقعة بعد هنيهة أو أكثر قليلاً ، ولكن الحقاء قد ذهبت وسمعت
بأذني هدير محرك سيارتها .

ساورتني مخاوف شديدة ... كادت الصور البشعة التي تراءت لي
وتراقصت أمام عيني تزلزل عزيقتي وتوهي قواي . ولكن رؤيتي زوجتي
المسكينة منطرحة على الفراش ، منهوكة القوى ، تعلو شفقتها زرقه قائمة ،
شجذت المدخر من قواي ، فهرعت إلى دليسل التليفون أستنجد بأبي
طبيب مولد .

يسر الله ؟؟ ! وثبت إلى ذهني كل ذكريات الصبا وحوادث

طلب العلم بكلية الطب في باريس حيث كان « يسر الله » هذا يطلب الطب فيها وينكب على هذا العلم انكباً لفت إليه رجال التعليم في الكلية واسترعى انتباه مراقب البعثات ، وأثار غيرتنا نحن الطلاب من تفوقه علينا ومن انصرافه عن ملاذ الدنيا ومرح الشباب في باريس .

تذكرت في هذه اللحظة الخاطفة عشرات من أولئك الذكريات الحلوة ، ثم استفتت بفتة ، وأخذت أدير قرص التليفون بثبات وطمأنينة .

الدكتور « يسر الله » هو الذي كلني بالالفأل الحسن ، يا للإيمان الدفين وقد انتعش بسماع كلمة « يسر الله » . شرحت للدكتور يسر الله موقف زوجتي بأوجز عبارة وأوضح بيان ، وختمت حديثي بما كان لا بد أن يكون . فأنحته بقولي أنا فلان رفيقك أيام طلب العلم ، وسمعته يقول بلهجة رصينة آسرة : ضع إناء كبيراً فوق النار وانتظرنى بعد قليل .

أحسست كأن رمقا يزيد على رمق حياتي . . . ذهبت تَوّاً إلى المطبخ أوقد النار تحت القدر ، ثم إلى زوجتي أغلّب فيها عنصر الشجاعة والشباب على عنصر التخاذل والاستسلام وقد عقد فوقها سحابة من الركود المنذر بما يليه .

هزت رأسها هزة اليأس عند ما قلت لها إن الطبيب قادم بعد دقائق وزمّت شفقتها كفاقد الرجاء ، وفتحت عينها بمحاولة أن تقول لي كلمة ولكنها لم تستطع .

يا لله من هول ما تراءى لي من صور مفزعة مرعبة ، ومن خواطر قائمة مخيفة !! ولكن الأمل والرجاء والإيمان وكل ما هو موروث عن

العقائد والتعاليم الدينية قد أهابت بي أن ألوذ بالعناية الصمدانية فهي
رحيمة رءوف بزهرة شباب زوجتي أن تدبل قبل الأوان ، عليمه بذات
أسرار قلبي الذي ما خفق منذ خفقت الواعية إلا للحب . وهل الله
إلا محبة ؟ وأخذت وجهي بين كفي وطفقت أبكي بكاء الآمل
لا بكاء اليأس .

هرعت إلى الباب أفتحه للطبيب القادم ، هو صديق بعينه ، لقد
طوّحت به عشرات السنين ولكنها عجزت عن إقصائه عن حلبة الشباب
وخميلة الصبا ، قال ولم يسلم : « ضع ما في داخل هذه العلبة في الماء المغلي
ودلني على غرفة الوالدة .

مشيت أهديه الغرفة حيث كانت زوجتي منكبة في سريرها
كأنه مومة أو النائمة . أخذ الطبيب ذقتها بأطراف أصابعه فانبسخت
صفحة خدها ، فصفعها صفقة أجفلتها ، فلم يلتفت إليها بل انكفاً على
منضدة كانت إلى جانب السرير يفتش عن دواء كنت هيأته وفق طلب
الدكتورة القابلة .

سألني عن الوقت فقلت إنها الخامسة صباحاً ، فقال : في الساعة
السادسة يكون كل شيء قد تم ، وسأجلس معك ساعة على مائدة
الإفطار ، وأولج إبرة في ساق زوجتي وحقنها ثم غرز حقنة ثانية في
الساق الثانية ، والتفت إلى حماي يسألها أن تبقى إلى جانبه ونظر إلى ...
أدركت مبتغاه فخرجت من الغرفة فوقفت عند بابها كالصبي الحردان .
استيقظت أوجاع زوجتي وعلا صراخها ، اشتد جارها وأخذت

تخور . سمعت الطبيب ينصحها بأن تعطي نفسها مطاق مداها وقوتها في الصراخ والمصر . ضقت أنا الواقف خلف الباب الموصل بالأم موضوعية ذاتية ليس في الإمكان احتمالها أو دفعها . طفقت أمشي في باحة البيت كالمهووس حيرة واضطرابا ... أف هذه الساعة المثبتة في الحائط تتكثك برتابة ووزن . علقت بصري بها وبودي لو أجتو إليها ضارعا أستحث خطاها ؛ لأن البائسة اللعينة بطيئة لم تقطع بعد نصف المرحلة التي قدرها الطبيب .

يا للهول من سماع صراخ المرأة تتوجع ! صرت أذهب وأجىء في الدار كالتائه . ياللا ولياء والتديسين إني أستجير بكم ! أقدم النذور شمعاً وبخوراً ، سأحسن إلى الفقراء ، سأقرض الله مالا لتقاء نجاة زوجتي . انبهت من الغرفة صوت كأنه ينزع عن جسد وروح جسداً وروحاً آخرين ، وتلته حركة أقدام تتنقل ، وسمعت صوت بكاء رقيق ناعم من حنجرة ضيقة ، فأيقنت أن المولود أنثى . قلت وكأن سحابة تمطر رذاذاً قد غسلت في لحظة نصف أتعابي واضطرابي : ليتني أوصوص من خلال ثقب مفتاح الباب فأرى زوجتي وقد همد صوتها فتطمئن نفسي فأغسل بقية أتعاب الزوج يوم ولادة زوجته !

جلست الى المائدة قبالة صديق الدكتور « يسر الله » نتناول طعام الإفطار بشهية الجائع ولذة المتعب . كنت أتوقع أن يبدأ صديق الدكتور الحديث عن ذكريات أيام الطلب في باريس ، أو عن حملة صادقة قاسية يشنها على القابلات الملعونات المستهترات اللواتي لا يقدرن مسؤولية القبالة

ويستهنّ بأرواح الوالدات ، ولكنه رفع رأسه قليلا وقال : « لقد أُعجبت بساقى زوجتك فانهما جميلتان حقا ، وإني متى عدت إلى البيت سأكشف عن ساقى زوجتى لأرى هل هما متناسقتان بضتان أيضاً » .

لم أتمالك أن قهقهت لهذه المفارقة الغريبة والملاحظة الساذجة من طبيب إخصائى فى الولادة دأبه كشف ما يستوجب السر مما لا يراه سواه . ولكنى فطنت إلى ما أنتظره من غرائب الحديث من رجل أعرف فيه الشذوذ والانحراف عن كل ما هو مألوف من السلوك الطبيعى ، وتذكرت أنى كنت أقيم معه فى غرفتين متجاورتين ، وأنه ما انفك يوما عن تقرىعى لفرقى ، على حدّ زعمه ، فى بحور التاريخ الأدبى أقلب أحداث القرون وتطوراتها واحداً بعد واحد ، وأدرس نفسية كل كاتب برز فيه وعبرى سطع فى سمائه ، أستخلص منها ما لا تقوم له قائمة على قاعدة وطيدة ، ولا يقاس ولا يوزن إلا بميزان ومقياس من ذوق فردى وإحساس ذاتى ، وشعور خاص . وكان يقول لى : أنت من أولئك المجانين الذين إذا مددت أحدهم على مشرحتى حين أنال شهادة الطب وجدت فيه انحرافا طبيعيا لا شأن للطب فى معالجته ، وسيكون مأواك ومأوى زملائك وأقرانك الأدباء ، لا المستشفيات والمصحات ، بل البمارستانات تحجزون فيها حتى لا تشوشوا على المجتمع بقصائدكم وقصصكم وفلسفتكم أيضاً مدعين أنها فنون الحياة والحب والجمال ! وكنت بدورى أقيم له الدليل تلو الدليل على أنه هو المرور الملتاث .

وتذكرت أنى كنت ذات مرة متفقاً معه على قضاء سهرة راقصة

وعند ما أزف الوقت قال إنه ذاهب إلى الحلاق ، وقد عاد حليق الرأس كأنه جندي ألماني في الأسر ، وهكذا تخلص من السهرة .

تذكرت هذا وقلت : أليس الإضراب عن الزواج والتبشير بالعزوبة والنفور من المرأة ، دليلاً قاطعاً على هذا الشذوذ ؟؟ وسألت هل تزوجت حقاً يا دكتور ... ومن ... وكيف تم ذلك ؟؟

ضحك ضحكة عالية وقال : ها أنت ذا المجنون الأديب بقسده ولفظه وتعبيراته التي عرفتها . وصوب إصبعه إلى وجهي يؤكده أني أنا المقصود بما يقول ، كأنما في الغرفة سوى يخشى أن يحمل عليه القول .

أحضر الخادم القهوة فأخذنا نحتسيها . ثم أشعل الدكتور سيجاراً « تشرشليا » من تبغ هافانا ، واستراح في مقعده وقال : اذهب فجرع زوجتك جرعة كبيرة من الكونياك ، ثم تعال أقص عليك قصة حياتي . ولما عدت قال :

نلت إجازة الطب ثم أخصيت في فنّ الولادة ؛ أتدرى لماذا ؟

قلت : لا طبعاً .

قال : كان تخصصي في هذا الفرع القدر انتقاماً لي من كل امرأة !

قلت : لا أفهم كيف يكون فن الولادة وسيلة للانتقام من المرأة !

قال وهو يتأمل : رويدك ريثما أبسط لك الأمر ، وأردف : صحیح

أني عفت المرأة وكرهتها ، ولكنني كنت دائماً ذلك الطبيب الأمين الذي

لم ين قط عن تحصيل أحدث العلوم واتباع أبرع النظريات في فن

الولادة أطبقها على مرضاي ، وقد جعلت مستشفى نموذجاً كاملاً للنظام

والنظافة ؛ لأننى أعتقد أن النظافة هى العنصر الأول فى وقاية النساء وسلامة جنينها . والنظافة التى نراها فى المرأة والتى بها تبرز مزهوة متكبرة ، توازى من الناحية الأخرى قذارتها التى أعرفها أكثر من غيرى من الرجال . وهذه القذارة التى لا حيلة لها بها ، هى التى زهدتني فيها وباعدتني عنها ، وهى أيضاً بعينها جعلتني أغضى عن الجوانب الأخرى الجميلة والمستحبة فيها ، فصرت لا أنظر إلا لهذه الناحية التى تتقزز لها النفس .

قلت مقاطعاً إياه : لماذا سكتَ عن عنصر الانتقام وقد جعلته

رئيسياً فى مستهل كلامك ؟

فأجاب : يالك من أديب شبيهه بإبليس الرجيم ! أنت تعلم أن للشباب موجات جارفات ، وأن النادر فى الشباب من ثبت لتلك الموجات أو انحرف عنها ، وتعلم أيضاً أن للجاذبية قوتها ، وللكلام سحره ، وللرقة والدعابة والتلطف أثرها فى خصال الرجل وفى نفسه أيضاً ، أما أنا والحمد لله الذى لا يحمد على المسكاره سواه ، فإني مجرد من هذه الخصائص ومنتحل بالجلافة والخشونة التى لا تجتذب سوى المرأة السادية المكروهة ، فلا عبرة إذاً بزهو المرأة على ، كما لا غرابة فى حملتي عليها أدغدغ شعورى بالانتقام منها .

قلت : إن الحب إذن هو الدافع بك إلى الانتقام !

سكت ... ولكن سرعان ما حدجني بنظرة وقال : هل كل أديب

ثرتار مثلك أو مستخف ، لا يأتى بالكلام على وجهه الصحيح ؟

لقد سألتني : هل تزوجت ، ثم ألحقت بسؤالك ثلاثة أسئلة أخرى ، فدعني أجب عليها .

أجل ! لقد تزوجت ورزقت منذ أيام مولوداً ذكراً لم أتبين قسماته بعد ؛ لأنها ما برحت تذكر بلامح الحيوان الذي تحدر منه ، وستنكشف هذه الملامح من كل مولود بعد أسبوع أو شهر أو أكثر قليلاً وفق أصالتها . وقد حرصت يا صديقي ألا أولد زوجتي ؛ لأنني هجرت المهنة منذ تزوجت ، ولأنني لا أريد أن أحتفظ في ذهني بتلك الصور الفاضحة التي أعرفها في كل النساء ، وحتى لا تنكشف لي زوجتي عن كل ما هو مستور ليبقى لخيالي المجال الرحب في تصويره وفق رغبات النفس في تمثيل الجمال ودوافع الغريزة في بعث أشباح الذاكرة .

هممت أن أقول له : إن كلامه هذا هو من صميم الأدب ، ولكنه أسكتني بإشارة واستطرد يقول :

كنت جالساً ذات يوم على الرمل عند شاطئ البحر في الإسكندرية ، أسرّح بصري في بساطه الممدود المصبوغ بالألوان المتناسقة والمرقش بالأمواج متدفقة صاخبة أورهوة لينة ، أملاً رثي من نسيمه العطر الندي ، لا ألتفت إلى نسوة عاريات يكدن أن يكن شبهات بسيدات يدخلن غرفة الولادة في المستشفى عندي لولا أنهن خصاص البطون ، ولأنني أستنكر هذا العري الذي يطغى الرغبة ولا يشعلها إلا في الوهلة الأولى . كم من الساعات كنت أقضيها في صباح كل يوم على الرمل تظلني مظلة ابتعتها لهذا الغرض ، لا أنطلع إلا إلى البحر الذي كان يجذبني

إليه فاستسلم راضياً لهذا الانجذاب المستحب .

قد يدهشك أن تعلم أنني ما قرأت صحيفة أخبارية ولا قصة عنوانها « سوء فهم » مؤلفها شاعر ممرور كان أهداها إلى أحد الأصدقاء الخبثاء ، ولا فتحت كتابا في العلم أو في الفن ، ولا التفت بمنة أو يسرة أتعرف على جيراني في ذلك الشاطيء الذي يحجج الناس إليه من كل أرجاء مصر ، ولم أفكر في أن يرميني أحد أولئك الجيران بالذهول أو بما هو أشد منه ، لأن البحر كان في حقيقة الأمر يذهلني عما حولي ويطر بني بسحر أنغامه التي لا تملّ ، ويقصيني بعيداً عن رياء الناس ونفاقهم في عشرتهم .

حدث أن سمعت لفظاً من سيدات يشتمن شباناً مفضوحين ، فالتفت فإذا بي أرى سيدة شقراء لاهي في سن الشباب الوثاب ولا هي قريبة من سن الكهولة المتحرقة ، جالسة تحت مظلتها قريباً مني . لقد تطلعتي شعرها السبط الأشقر ثم ثيابها تغطي كامل جسمها ، فكان ذلك التستر والمبالغة في التحفظ ونبذ زى العصر الحديث قد أضاعت فجأة ما أظلم من جوانب نفسي ، وأيقظت المتبدل فيها من إحساس ، وجلت المتأكسد من عاطفة . أو قل إن فكرة ولوغى بحكم مهنتي القدرة وتقزز نفسي منها قد استجالت في لحظة واحدة إرادة حازمة وشرعا طبيعيا .

أما الإرادة فكانت في طلب الحياة ، وأما الشرع الطبيعي فهو في مجارة ناموس الحياة في إتمام غايتها من الوجود . وقد قررت أن أتزوج من تلك السيدة ثيباً كانت أو بكرأ ، وأن أهمل مهنة الولادة تخلصاً من عقدة الانتقام من كل امرأة .

بدت إشارة منى تفيد التعجب ، فأدركها وقال : اصبر حتى أفضى إليك بكل شيء .

قلت مهلاً ! فإني أعرف أن الشذوذ ضرب من الجنون ، وأن في الجنون شيئاً من الحكمة . فما هي حكمتك في قلب أوضاعك وقد ناهزت الستين ؟

قال : اصمت أيها المهذار ، وتعلم منى أن في الحب لا في الشذوذ جنونا وحكمة . أما حبي الفجائي فقد تولد من الجنون ، وأما جنوني فقد صيرني من أحكم العقلاء في تدبير أمري على رغم تجاوزي الستين . وصمت هنيهة ثم قال :

حييت السيدة باحترام وعرفتها من أنا ، وأطلعها بإيجاز على غرضي ، وسألتها : أئمة أسباب مانعة ؟ فصمتت وقد خفضت رأسها وأخذت تنكت الرمل وتخط خطوطاً بحركة آلية ، ثم أجابت بصوت لين خفيض : أترضى يا دكتور أن تزوج من مطلقة ؟

قلت - لم يحرم الشرع الزواج من المطلقات .
 قالت - أتقبل أيضاً سيدة تجاوزت الثلاثين من عمرها ؟ فابتسمت وقلت : يحسن أن تعلمي أنني أناهز ضعف سنك . واقتربت منها وأنا أقول كأنني أهمس : لقد رأيتك الآن وأحببتك ، فابتسم قلبي للحياة وتوكلت على مشيئتك في الرفض أو القبول : إن أردتِ تقدمت وإلا فإني أعود من حيث أتيت أطوي البقية الباقية من العمر على العزوبة حتى النهاية .

قالت - ألم يتزوج سيدي الدكتور قط ؟

قلت — ما تزوجت قط ، وإن أتزوج مطلقاً إذا رفضت طلبي .

قالت — مالك لا تقترب من مظلتي ؟

جلست إلى جانبها ، ولم نبرح مكاننا حتى كنا مهّداً كل سبيل الزواج إلا سبيلاً واحداً هو موافقة والدها الموظف المتقاعد .

عينان ضيقتان ، ووجه مستدير ، وبشرة بيضاء زاهرة ، وشاربان أبيضان كثيفان يستران قسماً واسماً من وجهه الرجل التركي الذي مدّ لي كفه المصافحة وكأنه يعطينيها لأقبلها .

أوضحت له غرضي من البناء بابنته التي كانت مهدت الطريق لهذا الأمر ، فقال وقد بسط قطوباً في حاجبيه : يكفي قبول ابنتي إياك زوجاً ورضاك أنت بأن تكون سيدها لأبارك زواجكما .

قلت — ساها إذا شئت .

فأجاب قائلاً : لا تكن في سرعة الشباب وابتسم ، واستطرد بلهجة تركية ولازمات في التعبير عرفناها في هذا العنصر الحاكم منذ أخذنا نقلهم ساخرين ، مفادها أن دواليب (عجلات) عربة الكهول أسرع في دورانها لثباتها ، وأضمن من وثبات الشباب وقفزهم وتعرضهم للانزلاق ... وبعد دقائق رفعت الكلفة من بيننا وصرنا نتحدث كصديقين ربطتهما أواصر الإخلاص . ولما همت بالانصراف دعاني إلى العشاء في اليوم التالي على مائدة ستضم ثلاثة أشخاص فقط .

التفمنا حول مائدة وضع الخدم فوقها صحاف الطعام ، وتركونا نتحدث

في موضوعنا الناضج . كدبت أقترح استدعاء المأذون فأدركت الفتاة غرضي وابتسمت ، أما والدها ، وقد عرف في حب سرعة البت في الأمور ، فقد قطب حاجبيه وقال :

أتعرف يا دكتور أن ابنتي مطلقة ؟

قلت يهمني أن أعرف هل انقضت عدتها .

قال — هذا أمر فرغنا منه منذ بعيد .

قلت — ما الذي بقي إذن ؟

قال — أرجو أن تنصت لأقص عليك قصة هي هامش على الموضوع

كما هي متن له .

قلت — هات ، فربّ هوامش تكون أكثر توضيحاً وأقوى بنياناً

من المتون .

قال — « كنت مديراً في إحدى مديريات الصعيد ، جاءني ذات

يوم وجيه من وجهاء البلد وافر الغنى ، عريض الجاه ، حميد السيرة ،

لم تعرف دوائر الحكومة عنه ما تعرفه عن أكثر الوجهاء والأعيان والعمد

في الريف المصري ، ولم يعرف عن أسرته أنها نامت على ضغينة أو حقد

أو طولبت بثأر . هذا الرجل جاء يخطب ابنتي وحيدتي لتكون زوجة

لولده وقد عاد من أوروبا يحمل شهادة علمية قلّ أن فاز بمثلها طالب من

مصر . استمهله ريثما أبحث الأمر . ولم أتردد في البت فيه حينما استشففت

من حديتي مع ابنتي ما يدل على معرفتها هذا الشاب العائد من أوروبا

بثقافة عالية وأخلاق مهذبة كما نقل لها صديقاتها الفتيات عنه . ولا ابنتي

هذه مكان الصدارة في فؤادى ، فكم سرحت فيه وهى ما برحت تمرح في رحابه برغم تقدمها في سن الشباب ، لأنها تملكته منذ انتقلت أمها إلى دار البقاء ، وسيدبقى لها بتمامه ، ما حبيت .

قلت لك : إني لم أتردد في البت في موضوع زواج ابنتى من ابن ذلك الوجيه ، ولكنى في الحقيقة ترددت كثيراً ، لا عن تعال من الحاكم على المحكوم ، أو عن تعصب أو عنصرية أو فرية يفتريها التركي المتعجرف على المصرى الفلاح أو العكس ، إنما قدرت فوارق العادات ، واعتبارات التقاليد التى لا يمكن أن تمحى في جيل واحد أو أن تكتسب في جيل يليه أو يأتى بعده . ثم قدرت عوامل التربية وأثر الفردية في العائلة ، وروح الألفة في الأسرة ، وشجاعة الرأى ، ونمو الشخصية ، والاعتماد على الذات وغير ذلك من الفضائل الخلقية المكتسبة من البيئة ، وهى مناعات تقى الفتيات كما تقى الفتيان من عثرات المجتمع وغوايات الشباب ومزالقه ، ووازنت بين نموها في بعض العناصر المتمصرة وبين خولها في كثرة العنصر المصرى الأصيل .

كادت تقديرأتى وموازناتى تقضى على فكرة الزواج ، ولكنى عدت فقلت بوجوب الاتصال بالشاب الخاطب إذ ربما أتلمس فيه عقلية تناسب عقلية ابنتى ، وقد تكون تقديرأتى إن كانت صحيحة بالنسبة لكثرة الشعب المصرى ، خاطئة بالنسبة للمتعلمين والمثقفين من الجيل الجديد .

لقيت شاباً بهى الطلعة ، وثيق التركيب ، حلو الحديث ، جم

الأدب ، أتقن حفظ ما لقن من دروس في معاهد أوربا قد تعينه على أن يكون موظفاً لبن العريكة سلس القيادة في الدوائر غير الإدارية في الحكومة ، كما لمست فيه طبيعة المصري الكامنة في الأجير والمزارع ورب الأرض ، وطموحاً إلى التقرب من الحكام والتوسل بهم للوصول إلى من هم أعلى منهم مكانة من أرباب الحل والعقد . كذلك رأيت فيه انصياعاً للأوامر وانقياداً أعمى لتحكيمات عائلية ومؤثرات محلية وخلائق إقليمية ، جعلتني أتقلب بين حالتين من التوجس والريبة ، ولكن سرعان ما اندجت تقديراتي تلك بجرّة قلم عند ما شمت الرغبة تتراقص جذلانة في عيني ابنتي ، واللهفة على الزواج تسيل ابتسامات حلوة على شفثتها .

قلت في نفسي : فلا بادر في التوسل بآخر ما يملك الوالد من وسيلة لإسعاد ابنته ، فاشترطت على الشاب الاستقلال عن والديه في السكن فيتدرب على أن يكون ربّ البيت ، والعمل منفرداً عن والده فلا يكون هو وزوجته حميلة عليه أو أجيراً لإخوته ، وعلى ألا تقام أفراح وزينات لزواج قدسيته في أسراره .

رضى الوالد والولد بالشرطين الأول والثالث ورفض الوالد الشرط الثاني لاعتبارات عائلية قائمة على أن الأرض الموروثة عن الآباء والأجداد يجب الحرص عليها والاحتفاظ بها للأبناء والحفدة ، لأنها مصدر حياة الأسرة وسرّ قوتها ووجاهتها .

رضيت ... ورضيت ابنتي واتفقنا على تحديد ليلة الزفاف .

رأيت الفتاة تترك المائدة وتنسل من باب الغرفة ، أما الوالد فقد

استطرد يقول :

أسامت ابنتي إلى زوجها وقد شعرت بأن قلبي قد انتزع من صدري
ليعيش سعيداً بعيداً عنى ... ولما ابتعدت السيارة التي أقلت العروسين
انكفأت إلى غرفتي أبكى ... لقد بكيت المرحومة زوجتي وقد تركتني
أفرح وحدي بزواج ابنتنا الوحيدة .

لم أدركم من الساعات انصرفت من تلك الليلة التي أحميتها أتطلع
تارة إلى نجوم السماء أختار أكثرها تألقاً فأضرع إلى الله التقدير أن يجعل
ذلك النجم الساطع قريناً بحظ ابنتي وسعادتها ، وتارة أخرى أرنو إلى
البرية الخضراء وهي ساجية تحت ضوء القمر ، فأسأل الخالق العظيم أن
يجعل بطن ابنتي فياضاً بالذرية كريماً خيراً مثلها .

ولما أدبر الليل وانبتق الفجر ، كنت جالساً في شرفة البيت أسبح
في ذهول الاطمئنان والراحة ، في تلك اللحظة من انصرام الليل وغفوة
القدر سمعت الباب يطرق ... استيقظت من لذة الذهول وهرعت أفتح
الباب للطارق وإذا به ابنتي العروس !! ؟ !

قرأت في وجهها على نور المصباح سطور هدوء النفس ... لم تكن
عابسة الوجه ولا باسمة الشفتين ، ولحت كبرياءها تتجلى في نظرات
عينها ، وسمعتها تقول وقد ارتمت على مقعد قريب « يحسن بنا ،
يا والدي العزيز ، أن ننام قليلاً وفي النهار أقص عليك أحداث الليلة .

فهمت من كلام ابنتي أشياء وأشياء ، أو قل إن الشيطان أدار في
خاذي خواطر الشاب الأرعن وحماسة الطائش الأخرق ، ولسكني عدت

فلذكت زمام الفطنة وحكمت عقلي ، والعقل ياسيدي الدكتور روح الله .

ثم كفكف دمة انحدرت على خده واستطرد يقول :

آه ياسيدي من ظلم الرجل وجبروته ! تقوم على تهذيب الفتاة وتعليمها ، ونحجب إليها الحياة الزوجية والسعادة المقترنة بها ، نطالبها بالعفاف والصون وبفضائل ترضى أنانية الرجل ، ولا نفتر عن التربص بها وإلقاء مختلف أنواع الشباك ونصب الفخاخ لاقتناصها ، لا نتورع عن إغرائها بوعود الشرف وأيمان الحب ، فإذا ما المسكينة ضعفت ، كشرنا لها عن أنياب الشر ، ووصمناها بالفجور ، وأنزلنا بأهلها العار .
لم أمهل عاطفة هذا الرجل الذي أثقل صدره هذا الهمّ الموهوم ، ولم أدعها تهدياً من جيشائها ، بل نهضت فأخذت كفه بين كفتي وهزتها بقوة حارة مخصصة وقلت :

أنا مثلك ياسيدي المدير أو من بعقل الإنسان فاسمع ما أقول
كطبيب مارس مهنته عدة أعوام مرت بي في غضوناتها من الحوادث ما لا يخطر لك ببال ، أكثرها من نسيج الإنسان وبعضها من صنع الجهل ، وأقلها من شذوذ بناء الطبيعة وخللها ، ولسكني لا أعرف من الأحداث ما هو أشنع من التشهير بقدرسية الزواج . إنه من الفضيحة أن يكون الجهل مسبار العفاف ، وأن يكون شرف الأسرة رهيناً بغشاء مهمل في وسع الإنسان تمزيقه وإعادةه سليماً غير ممزق وقد يتمزق من ذاته ، والأنسكى من هذا أن يكون هوج الرجل من ناحية ، وحياء الفتاة من ناحية أخرى ، أو يكون الألم باعثاً على إساءة التصرف فتكون فضيحة

حيث لا فضيحة وعار حيث لا عار مطلقاً . والأدهى من كل هذا أن تستأثر أمة واحدة في العالم بهذا الجهل المفرد الزرى وتختص به وحدها دون أبناء البشر حتى العائشين منهم على الفطرة الأولى . إنما يجب ألا ننسى أن هذه العادة آتت إلى التراخي وهي لا بد صائرة إلى الزوال كما اضمحلت عند الطبقات التي هذبها العلم وأنارها العرفان .

— مهلاً مهلاً يا سيدى الدكتور ، فإن الأمر أيسر مما تظن ولا يمكنه

أغرب مما تتصور . وإليك رواية ابنتى فى وصف الواقعة ، وهى صادقة فى كلامها ، لم أعلمها الكذب فهى إذن لا تكذب . قالت :

..... استقبلنى أهل زوجى بالترحاب والفرح ... أخذنى زوجى بيدي

فأدخلنى غرفة نومى وكانت حافلة بنسوة عرفت منهن حماتى وبناتهما ...

رغبت إلى حماتى أن أنصو ثيابى فى حين وقف زوجى يتأهب للصلاة .

ولما هم بالتكبير انقطعت أنفاس المتكلمات ... كنت جالسة على أريكة

فى زاوية الغرفة كمن يشاهد رواية تمثيلية ... سلم المصلى ومسح وجهه

بكفيه ونهض ... ناواته أمه منديلا واسمعا من الحرير الأبيض ... فى

هذه اللحظة أحسست بقبضتين قويتين شدتا ذراعى إلى الوراء ... جن

جنونى ولاكنى تماكنت ... نصحت لزوجى أن يتمهل ... لم تقنعه حجتى

بوجوب الإقلاع عن هذه السخافة الفاضحة القذرة ، وأنه سيتمحقق هو

وحده من بكارتى ... تشدد فى وجوب احترام العادة وحتم أن يرى

بعينه ويشهد أبويه وأهله على صحة ادعائى .

قلت بإرادة عازمة هذا هو ما أرفضه ... فأجاب بمنف : بل هذا

ما لا بد منه ... صممت وصمم ... حذرته عواقب رفع يده على ...
 تصاممت عن سماع كلام أبيه وأمه ، ورفضت الاحتكام إلى أبي لأن
 المشيئة هي مشيئتي ، والعفاف والبكاره هما عفاي وبكارتى ، وقلت على
 مسمع من الجميع : « لم يبق لهذا الزوج المتعلم مكانة الرجل فى نفسى » .

طلبت من الحكومة يا سيدي الدكتور إحالتى إلى المعاش وجمت
 أسكن هذه الضاحية فى رمل إسكندرية بعيداً عن الناس كأن الدنيا هي
 بيتى هذا وسكانها ابنتى ، بل هما كل شىء فى وجودى ، ولم أبرح هذا
 البيت منذ جمته من نحو عشر سنوات ، وسكت .

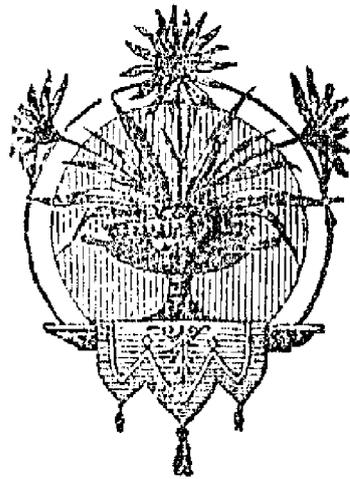
أحسست يا صديقى بأناات السكوت ترن فى أعماقى ، وبآهات الوجع
 تلهث فى صدر هذا الرجل الشريف فقلت له : « يعز على يا سيدي المدير
 أن أرى رجلاً مثلك تعذبه جهالات الناس وتقاليدهم البالية يحدثنى عن
 هذه التوافه باعتبار أنها آلام توجع ، وأضنى ، وتشقى . بربك يا سيدي
 سر خادمك أن يدعو المأذون أو دعنى أدعوه بنفسى ، فقد يشوقنى
 إقحام فرحة الحياة على نفوس ثلاثة تعطلت عن معرفة حقيقة الحياة
 والشعور بها ... وتزوجت .

خرجت كلمة « تزوجت » من بين شفثيه تحمل أبهى لمحات الابتسام
 وأبهج رنات الفرحة ، وأطرب نغمات السرور .

وقف الدكتور مودعا والسكنه لم يمددلى كفه المصافحة ، بل رفع
 إصبعه فى وجهى كالمنذر المحذّر وقال : « لقد رضيت هذه المرة أن أستجيب

دعوة الصديق الذي لا تنسى صداقته لتوليد زوجته . فإياك أن تدعوني
 مرة أخرى لمثل هذا الغرض . لقد هجرت مهنة الولادة وعافت نفسي
 مجابهة الحقيقة مجردة من المرأة . أريد أن أكون شاعراً خصب الخيال
 فأبتدع للوجود والموجود جمالا أفنن في تصويره ، أنفخ حتى في الأشياء
 روحاً تجعلها تحس بدائع هذا الكون فتشترك مع عقل الإنسان في تمجيد
 الباري الأول .

لقد جعلت بيتي ، كما ستراه يا صديقي — ومدّ إلى يده للوداع —
 دنيا حافلة بالأزهار غير الخالية من الأشواك ، وستتعهد زوجتي بجعله
 تارة جنات نعيم وتارات أخرى سفير جسيم .



الجلیم

obeykandl.com

توهمت

أنى الشرق المتأمر ك الوحيد بين ركب الباخرة التى بعث بها الرئيس روزفلت إلى الشرق لتعود بالأمرىكيين إلى ولاياتهم المتحدة قبل أن تقطع الطريق عليهم الحرب الوشيكّة الوقوع بين أمريكا واليابان وحايقتيها . توهمت ذلك ، لأنى لم أر ساعة رفعت الباخرة مراسيها وأخذت تبتعد عن الميناء مودعا واحداً يلوّح بمنديل ، ولا بصراً واحداً رنا لراكب واحد من ركاب هذه الباخرة التى ستشق طريقنا بين عجاجات الجحيم المستعرة بين أنصار الحرية وأشباع الفردية .

ألقيت بالنظرة الأخيرة على ميناء بيروت ، ولما اختلطت الرؤى ، وصرت لا أميز بالعين المجردة إلا أشباح جبال لبنان الغاربة قسماً فوق الغيوم دون أشجار الصنوبر الخالدة ، طفت أروود الباخرة أنطلع إلى ركبها الأمرىكيين .

إن الروح الجماعية أصيلة فى خلق الأمرىكان ، تستهياهم المغريات كالفرنسيين ، ويدفع بهم حب الاطلاع إلى معرفة ما خفى من الأمور ، وما استتر من الأشياء وخفايا الناس أيضاً ، وهم لا يتورعون عن المراهنة على كل حدث أو خاطرة ، فهذه الخاصة هى التى حفزت أكثر الركب ، وقد تعارفوا وتآلفوا ، إلى معرفة طوية رجل متأمر ك آخر سوى ، نفور جالس فوق كرسى مستطيل من كراسى الباخرة لا يجيب عن سؤال

راغب ، ولا ياتفت إلى طلب أى طالب ، سيدة كانت أم رجلا . وقد استعان هؤلاء الطاعنات بي ، وكانت رغبتهم في معرفة أزرار مواطني الشرقى تكاد تنقلب شهوة ملجأها أكثر لاجحة من حبه الرهان .

قالت لي فتاة رفاة البشرة : « أحسب صاحبك عاشقاً ، لأن الحزن يجال نفسه بوشاح من اليأس ؟ ! وقالت سيدة فقدت حياتها في مغالطة نفسها فتركها لأقدار الزمن : « صاحبك هذا قوى الغرام وهذه حالة تنتاب الكهول حين يشعرون بالهرم » وقال شيخ : « قد يكون سبب حزنه عدم إتمامه بناء القصر الذي بناه في قريته فتركه يمشش فيه الخفافيش والبوم وعاد إلى أمريكا يجمع الدولارات ليتم بناءه » ولكني في بطني ، وهو يضحك ، لكفة لولا تعود بطون الأمر يكان تحملها لأفرغت ما فيها من كل منفذ . وقال آخر يعتمد الرصانة : « الجنسية الأمر يكية للبنانيين حصانة تقي أطعمهم من طغيان إخوانهم الأقوياء » ، فقالت الفتاة الصبية مخاطبة هذا المعترض : كنت دائماً يا عمي العزيز تكبر في اللبنانيين مقدرتهم في شق طريقهم للحياة برغم تحاملك عليهم . قات وقد قطعت على هؤلاء النقادة حبل استرسالهم : « هذا بحث في خصال قومي سأحاسبكم عليه في ظرف مناسب ، أما الآن وغايتكم معرفة صدوف مواطني عنكم ، فأني أتكفل بإشباع رغبتكم وإرضاء فضولكم .

البحر والوحدة أنجع دواء للشفاء من لوعة الحزن ، بل لا حرج على

القاتل : « إذا انطلق لسان محزون بالشكوى فقد زال نصف دأبه ، وإذا

لقيت شكواه قلباً واعيا انتقلت إليه « لقد استطعت بوسائلى الخاصة حل عقدة لسان هذا الحزين وهو من مدينة فى لبنان اشتهر سكانها بالفطانة والذكاء ، وعرفوا بالصلابه والعناد والأريحية والشمم لتأصل صفات الحرية فيهم ، فقال لى :

أُعرف حى البرازيل فى زحامة ؟

قلت : أعرف الأبنية الجميلة المزخرفة القائمة على ضفاف البردوني .

قال : يوجد فى عاصمة البرازيل حى يشبهه فى هندسة البناء يدعى الحى الزحلى .

قلت : ما علاقة هذا بذلك ؟

قال : لست أبالغ إذا قلت لك إن جل طلاب الكلية الشرقية فى تلك المدينة كانوا يتوجهون وجهة الهجرة إلى البرازيل ، ولم يكن يحول فى خواطرهم إلا نيل شهادة الدراسة والرحيل إلى البرازيل واللحاق بإخوان سبقوهم إليها ، وهمهم العمل والكسب ، يبنون بناية جديدة فى الحى الزحلى فى البرازيل ثم العودة إلى زحامة يشيدون قصراً فخماً فى الحى البرازيلى الفخم .

قلت : أعرف روح المغامرة فى الزحامين دون سواهم من المهاجرين من لبنان .

قال : ما كدت أفوز بالشهادة المدرسية حتى رغبت إلى والدى أن

يأذنا لى بالسفر إلى البرازيل وقد وافقنا مكرهين .

كانت الباخرة التى أقلتني آنذاك تعج بمئات من المهاجرين أمثالى ،

وكانت مناديل المودعين ترفرف كأجنحة الحمام ، والعيون تزو بين ساهمة
ودامسة ، والقلوب تخفق خفقان حنان وحب ورجاء .

كنت مشرد اللب ساعتذاك ، أنظر إلى أمي وأبي بعين الولد البار ،
وانظر إلى فتاة كانت بجانبهما بعين قلبي . لم تكن الفتاة غريبة عني ، بل
كانت من أقاربي الأبعدين ، وقد جاءت من « كفر شيما » خصيصا
لوداعي . كانت معرفتي بها بسيطة محدودة ، أما في ذلك الموقف ، موقف
الوداع ، فقد انفتحت لها جوارحي فأحسست فجأة بأن كل ذرة من كياني
الذاتي تدعوني إليها ، وأنها هي هي المتمة لتكامل وجودي في الحياة ،
فوثبت على غير وعي وثبة قلب محفور ، وأخذت أدفع الناس حتى شققت
طريقي إلى سلم الباخرة ، فهزلت نحو والدي ، فأخذت يد الفتاة بيدي
اليمنى ويد أمي بيدي اليسرى ، وقلت لوالدي هاك « أنيسة » خطيبي
بل زوجتي بالروح ، احتفظا يا والدي بها . لن يطول غيابي . سأقتحم
البحر ، وأشق المنجم حتى أصل إلى الذهب أقتلعه من أصوله فأقدمه
عربوناً للزواج من حبيبتي « أنيسة » هذه . وقبات جبينها قبلة خاطفة فيها
كل الدوافع والبواعث والحوافز .

كان يتخلل حديثنا فترات ينقطع فيها الحديث لإشعال نفاة أو مسح
الجبين للاستدكار ، أو مشاهدة دارعة كقاعة تترنح ، أو غواصة تطفو
وتغوص ، أو أسراب من طائرات تهبط واحدة منها أو ترتفع للاستكشاف .
قال محدثي : غمر البحر معالم الأرض ، ولم تعد العين ترى الإقبة
مكورة فوق وجه الماء ، وكنت أرى بعين البصيرة وجه « أنيسة »

الصباح ، وعينها الصافيتين الناعستين تدفعانني دفعاً إلى الأرض الجديدة التي سأنبش تربتها كأنخلد وأقضم خيراتها كالجراد .

بدت منابت الأمل في نفسي تمتد سوقها ، وتبرز براعمها ، وتورق وتزهى . وأخذ خيال السعادة يحوطني بشملة من فرح تريني وجه المستقبل نضراً بساما ، فوددت لو أستتحت الباخرة أن تثب فوق اليم فتجتاز المحيط ساخرة من أنوائه وعواصفه فأصل طفرة إلى حلبة الجهاد والعمل . ثم صمت هنيهة وقال :

لَقَنَنِي مِوَاتِنِي فِي الْبِرَازِيلِ بِضَعِ كَلِمَاتٍ مِنْ لُغَةِ الْبِلَادِ ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ مَلَأَتْ أَكْيَاسِي بِأَنْوَاعٍ مِنْ جَوَارِبٍ وَمِنَادِيلٍ وَأَدْوَاتٍ زِينَةَ أَعْطَانِيهَا تَاجِرُ سُورِي ، أَطُوفُ بِهَا شَوَارِعَ عَاصِمَةِ الْبِرَازِيلِ ، أَقْرَعُ أَبْوَابَ الْمَنَازِلِ أَعْرَضُ عَلَى رَبَاتِهَا بِضَاعَتِي . كُنْتُ أَحْسُ الشَّفَقَةَ بِي وَالضَّحْكَ مِنْ رِطَانَتِي وَاعْتِفَارِ جِرَاتِي وَفُضُولِي ، كَانَ تَقْبَلُ الْبِرَازِيلِيِّينَ إِيَّايَ عَلَى هَذَا النِّحْوِ يَحْزُ فِي كِبْرِيَّائِي فَانْتَقَلْتُ إِلَى الضَّاحِيَةِ . حَبِطَ الرِّيفُ وَتَوَغَّاتُ فِي الْقَرْيِ النَّائِيَةِ أَسْعَى عَلَى أَقْدَامِي ، وَكَمَا نَقَصْتُ بِضَاعَتِي كُنْتُ أُرْسِلُ فِي طَلَبِ سِوَاهَا مِنْ عَمِيلِي الَّذِي اسْتَأْمَنِي وَلَا ضَامِنَ لِي عِنْدَهُ سِوَى أَنِي مِوَاتِنُهُ ! ؟

لِلَّهِ دَرُ الْأَمْرِيكَانِي يَا صَدِيقِي مِنْ عَطُوفِ شَفُوقِ ! وَلَسَكُنْهُ طَاعَةَ مَغَاصِرِ مِرَاهِنَ ، تَسْتَضِيْفُهُ فَيَطْعَمُكَ وَيُؤْوِيكَ ، لَا عَنِ كَرَمٍ وَلَا بَدْوَاتِ خَاطِرٍ ، بَلْ عَنِ فَضُولِ حَافِزِ مَلِاحٍ إِلَى الْاسْتِطْلَاعِ وَالْمَعْرِفَةِ .

رَكَنْتُ إِلَى الرِّيفِ أَبِيعُ سَاعِي لَا أَنْفَقُ إِلَّا نَادِرًا فِي شِرَاءِ سِيَجَارَةِ أَوْ كُوبَةِ شِرَابٍ أَوْ إِرْضَاءِ رَغْبَةٍ مِتْوَاضِعَةٍ ، وَإِنْ هَبَطَتِ الْمَدِينَةُ فَإِنَّمَا أَهْبَطَهَا

لأدفع ما على من دين لعميلي أو أودع في المصرف ما يتبقى معي من مال .
أخذت أرقام ريالاتي تزداد أسبوعاً بعد أسبوع ، وشهراً بعد شهر ،
فصرت أسخو بتحويل عشرات منها لوالدي ولأنيسة .

لم يكن شيء في الوجود يعادل فرحي حينما كنت أقرأ كتاباً وارداً
من والديّ يقول أبي في ختامه ، « أما خادمتك أنيسة فتهديك السلام
وتقبل يدك » .

كنت أغتفر لوالدي تمسكه بعادات أصيلة واعتبارات تقليدية في
كينونة المرأة ، وكنت أطلق أعنة خيالي تجول في عوالم الرؤى أتصور
نفسى ملقى عند أقدام « خادمتي » أنيسة أقبل يديها .

أجل يا صاحبي كنت أبعث بكتاب فيه تحويل مالي وألحف في طلب
وصل بالاستلام لأقرأ تحيات بريئة ساذجة ولازمة مستحبة لا يحيد والدي
عن تسطيرها بالنص الواحد في كل كتاب : « خادمتك أنيسة تهديك
السلام وتقبل يدك » .

انقادت نيران الحرب العالمية عام ١٩١٤ وامتدت ألسنتها المحرقة إلى
جميع أرجاء العالم القديم ، أما العالم الجديد ، برغم اشتراكه فيها في الساعة
الأخيرة ، فقد راجت أسواقه التجرارية وعم الرخاء كل الناس . كنت إن
أعجب من شيء فعجبي من أخبار كانت تنشرها صحفنا في أميركا عن بؤس
الناس في لبنان وموت بعضهم جوعاً ، ولم يكن يخامرني شك في أن أنيسة
المحوبة ووالديّ العزيزين أبعد من أن يناههم ما ينال الناس الذين تكلمت
الصحف وأطالت في وصف حالهم ! .

انقطعت أسباب الاتصال بيني وبين أهلي ، ولكنني كنت أغالط نفسي ، أتعمد المغالطة ، فأرسل الرسائل والتحاويل المالية كإعادة إليهم بدون انقطاع ، وأتهم إدارات البريد بالتقصير في القيام بالواجب ، وكنت أطمئن إلى المغالطة المستحبة لتحديد بي عن مجابهة الحقيقة . وما كادت أجراس الهدنة تدق معلنة رجوع الإنسان إلى وعيه وانعتاقه من وحشيته التي لا بسته طوال أربعة أعوام ، حتى عقدت العزم على العودة إلى الشرق .

عند سفري إلى أمريكا كان الأمل يحدوني ، وقد افترّ لي ثغره وابتسم ، فصار حين عودتي منها إلى وطني يحدوني الشوق والفرح ، فهل يفضحاني يا ترى بأنداء السعادة ؟ كنت في الذهاب أستحيث الباخرة لتصل بي إلى ميدان الجهاد والعمل ، وقد توسات إليها في الإياب أن تسرع السير لأصل إلى مقام الحبيبة ، مقر الوالدين ، فهل يلازمي الحظ في هذه المرة أيضا ؟ كان دنو الباخرة من الشرق ينسل خيوطا من غشاوات غالطت نفسي في تبين ما وراءها ، ويقيني في غبش صبح يتنفس الريب والشكوك ، وكثيراً ما كنت أستيقظ من أحلامي ، أنفض صور الذعر وأطرد الخيالات المرعبة ، ولكنني كنت أنجد وأبتسم ! .

كل شيء في ميناء الوطن باق على ما كان عليه إلا مظاهر مجاوبة ، وورطانة مقتبسة ، يمت المدينة ، لم ألتفت إلى همة ناشطة في حركة البناء والتعمير ، بل شقت سيارتي طريقها إلى الجبل . صدمتني مشاهد بيوت خربة وقرى مهجورة ، أما قرينتنا « كفر شيا » مسكن الحبيبة أنيسة فقد كانت مثالا بارزاً للأطلال الدارسة . أين أبي وأمي ؟ أين أنيسة ؟

أسأل الجار ولاجار ، وسألت الناس وإذا بهم غير الناس . حجت الدساكر المتناثرة حول القرية . لجأت إلى دير « القرقفة » إلى القساوسة ، استعنت بالمجائز على التعرف على أهلى وأقربائى ففرت منهم بفيض من الأخبار المرتجلة والأكاذيب المفتعلة ، والحيرة الكبرى !؟ ذهبت إلى مدينة « زحلة » أسأل عن أمى وأبى فتميل لى : إنهما رحلا عن المدينة منذ سافرت ! قد يكون الموت اخترم والدى الشيخين ، ولكن أنيسة ، الريانة الشباب ، الغريضة الصبا ، هل يقوى الموت اللعين على أن يمد لها يداً ؟ هذا محال بل المحال هو هذا !

نهض من مكانه وأخذ يمشى بخطوات واسعة ، ولما عاد إلى مجاسه كنت أتخيل أمارات الهلع ترسم على محياه فتحل عقدة صبره ، وإذا بجبينه تعاره مسحة من أمل . فقال بصوت حازم : لا يستنيم الأمل فى نفسى ولا يهجع . سأترصد الرجاء وأقاوم شبهات اليأس ، وأجد أنيسة . سأجدها لأنى أرى بصيصاً من روحها يشع فى أعماق نفسى ، وأصغى إلى هاتف روحها يدعونى ، إذن سأجدها . استعادتنى أشغالى المتعطلة إلى أمريكا . . . استفرقتنى الأعمال أو كادت تنحرف بى عن اتجاه بصيص أمل كنت أتطلع إليه . كان خيال « أنيسة » يلازمى دائماً ، فى الفراغ وفى العمل ، ولم أكن أذكر والدى المسكينين إلا قليلاً ، أستنزل عليهما الرحمة أو أكلف قسيساً إقامة صلاة على روحيهما . لم يكن نداء أنيسة آتياً من وراء المجهول ، بل كنت أسمعها وأراها وأحس بها تتقلب على أذرع الوجود ! هل تزوجت ؟ أشقىة هى ؟ !

وفي يوم من أيام ربيع عام ١٩٣٧ لـ ج بي لـ اعج خفي فـ نازعتني نفسي
 ودفعت بي - على رغم مني - إلى العودة إلى الوطن أعيدي الكرة
 في الاستقصاء والاستخبار . لم أمهل عقلي مهلة ليهديني إلى الممكنات
 ويريني المستحيلات ، بل لبـت الهاتف الخفي وهدت إلى لبنان . وفي
 صبيحة يوم بيـنا كنت أضعـد الجبل إلى كروم العنب والتين ، إذا بي ألقى
 فتاة تحمل سلة على كتفها مغطاة بورق الدوالي . نظرت إليها فإذا بها
 وضاحة الحيا ، ساجية الطرف ، مليحة المعارف . استوقفها فأجفلت .
 لحت في عينيها نور نفس أنيسة . صرخت على رغم مني : أنيسة ، أنت
 أنيسة ؟ !

وقفت الفتاة مبهوتة تجيل نظرة حيرى من عيني عتيقتين
 مغرورقتين بدموع رقيقة وقالت : لست أنيسة يا سيدي ، بل أنا يمنة ،
 اسمي يمنة .

يمنة ! يمنة من ؟ أين أمك ، من هو أبوك ؟

أقيت أسئلتى بنبرات سريعة جافة كادت تترك الفتاة ، ولكني
 استدركت الأمر بتهادئة اضطراني فتعمدت الابتسام لأدخل الطمأنينة
 على نفسها ، فقلت هل لك أن تحدثيني عن والدتك وأين هي الآن ؟
 قالت بصوت مختمق : تعيش أنت يا سيدي ! لقد ماتت أمي ومات
 أبي من زمن بعيد .

قلت : أتذكرين صورة أمك وما وصفها ؟

قالت : مات والدي قبل اكتمال وعي ، وكل ما أعرفه عن أبي أنها

ماتت نفسها وأنها تدعى أنيسة الخشتاوى ، أما أبي فأرمنى لا يحسن أحد نطق اسمه واستطردت كأنها أحست تشوقى إلى الاستطلاع فقالت : إن عائلة بطرس بك قد ضمتنى إليها ، وقد نشأت واستيقظت نفسى بين أولاده وخدامه .

كادت عبارتها فى وصف يقظة نفسها تشفانى عن غرضى ، وقد أحسست بعاملين قويين وثبا على وأغارا على مشاعرى : عامل الأمل ، وقد تحقق بلقىا هذه الفتاة التى لا شك أنها ابنة أنيسة ، وعامل نفسانى يماثل يقظة الحب التى استيقظت حين رأيت أمها إلى جانب والدى ساعة الوداع فى الهجرة الأولى .

رافقتها إلى بيت مخدومها ، وإذ كنا فى الطريق كنت ألمح فيها طمأنينة الطنل إلى جوار أمه ، وكانت الأفكار والصور والتخيلات ومرأى الماضى والحاضر والمستقبل تتماقب على ذهنى فتزدحم فيه وتكتظ . طابت من بطرس بك يد خادمته « يمنه » فلم يمانع فى الطلب بل عاقه على رضا زوجته التى كان يعز عليها فقد خادمته اليتيمة التى لا تليق بتنامى المرموق .

لم أدع « يمنه » تشعر لحوال أيام الخطوبة أنى كنت أعرف أمها ، وقد غام أو كادت تمحى من ذهنى صور الماضى التى تجمعت وانبتقت متجسدة فى شخص « يمنه » .

أخذت أوقف نفسها وأشعرها ، رويداً رويداً ، بوجودها الذاتى كأنسان له كامل الحق فى وجوده وحرية فى الحياة . كانت تصفى إلى

أقول الى بوعى وتتلقفها بعينيهما . صرنا نقرأ الكتب فاندجحت روحها بروحى ،
وما عتمت أن تحولت من تلميذة نجيبة إلى فتاة تدرك وتدرى وتتذوق
وتتمرد .

كم تمنيت مطاولة الزمن لأيسر لها مجال الروح فى حلبة الحياة بدراية
وفرح ، وكنت أنسى فوارق العمر وقد ناهزت الحسنيين ، وهى تشرف على
العشرين . لذلك أسرعت إلى عقد إكايلى وقد تطوع بطرس بك وزوجته
أن يكونا « إشبينينا » فى الزواج ، وقد أصرت زوجة بطرس بك على
إلباس عروسى « فروة » المشيخة إجلالا لفتاة يتيمة انتقلت إلى مصاف
الطبقة العليا .

صمت محدثى قليلا وقد عات وجهه سحابة غبراء ، ولكن ما لبث
حتى أشرق جبينه وقال : جمات نفسى أنا الرجل الكهل فاتحة غرام لزوجتى
الصبية وقلت : أترى تكون بنيتى هذه خاتمة غرامى كما كانت أمها مقدمة
كتاب حياتى ؟ كان مجرد هذا الخاطر وقد داهم ذهنى ليلة الزفاف ، كانياً
لأن يبعث فى حيوية بكرأ ، ويدفعنى إلى أن آلى على نفسى وقف
وجودى وما أملك على زوجتى ابنة حبيبتى . كم تمنيت فى ساعات العبطلة
والهناءة التى كانت تفيضها زوجتى على أن تطبق بأصابها أجفانى فأنام
أسعد نومة أبدية ، ولكن سرعان ما كنت أنتفض مذعوراً إذ أنخيل
استجابة أمنيته فأقبض بذراعى القويتين على جسم زوجتى البض اللدن
أثبث به كالطفل ، أتمم بكلمات متقطعات أغغمها بلاوعى استحياء
منها ومن نفسى المتناعة .

لا تعجب يا صاحبي إذا قلت لك إنى كنت أحيا بشخصيتين ،
وأعيش بماضيين ، وقد كنت أقوى على صهر روحى فى بوتقة لا دخل
فيها ولا زيف ، وعرفت السعادة معرفة حسية ، واستبدلت أنواعاً
منها عامة شائعة بنوع لئلى روحى بحت .

اذكر يا صاحبي فوارق العمر ، وتنوع الاختبارات ، ولا تنس فواصل
العقل وزعات المشاعر ، ولك أن تقدر بعد هذا أن اضطرابى وخلجات
نفسى ووساوسى ليست سوى مجرد أوزان قلقة لرجل شارف الخمسين
من عمره ليميش فى جنون العشرين . ضحكت طويلاً من الزمن وانتقمت
كثيراً منه ! وسخرت من تقديرات أناس يعيشون فى الضباب ويقدررون
علة فى زهرة لم تتفتح أوراقها فى الربيع ، حاسبين وجوب انطباق علم النبات
على عالم الإنسان ، جاهلين النفس وتجايب الفريزة وأسرار الروح ، وقد
تفتحت أحكام روحى فى غير فصل الربيع .

سندحت التفاتة منى فلقيت رفاق الباخرة ، الأميركان الطلعة
مشرئين كأن أعناقهم تمتد إلينا لتسمع آذانهم حديثنا ، وكانت
هذه الالتفاتة سبباً لانتشال محدثى من أعماق نفسه . أشعل لفافة وأخذ
ينظر إلى حلقات دخانها تبنى فى الهواء . لم أكن أجرؤ على مطالبته بإتمام
حديثه . أطفأ سيجارته ثم التفت ، فامحت ابتسامة باكية ترسم على فمه
وقال : انقضى الصيف والخريف ، ثم الشتاء والربيع ، وأنا قابع فى دارى ،
أرتع بنعم تفيضها على زوجتى المحبوبة ، مشمولاً بعناية خاصة منها ،
وكانت كلما طمأنت نفسى بالغبطة تهيئها بغير يرتها لغبطة جديدة ، وهكذا

كنت أرى الأوضاع مقاربة كأنى أنا وليست هى الطفل الخليق بالتدليل !
لم أكن زوجاً بل أبا ، ولم تكن لى سوى ابنة معبودة ، وكان هذا
الإحساس المختلط يحفزنى إلى إشعارها بأنى زوج قبل كل شىء ، وكان
الحياء يصدنى تارة ، وتارة أخرى يدفعنى إلى إثبات رجواتى ، وكان يمن
جنونى كلما دهمنى إحساس تخاذل أو فتور ، إنما الشعور بالتخاذل فى مثل
هذا الحال يخلق الحركة العنيفة دون وعى . أطلقت السيادة للجسد ،
وجعلت العقل خادمه المهمل ، اسمع يا صاحبي لا شىء يجعنا ننحرف عن
سبيل هدى الطبيعة سوى عنعنات العقل ، أليس كذلك ؟ واستطرد .
كدت أغرق عند شاطئ الغريزة غير حاسب أنها أوسع وعياً من إدراك
الإنسان الحكيم ! أقول لك يا صاحبي إن الغريزة امرأة ، والمرأة إرادة ،
والإرادة تحايل على البقاء والخلود ، ولكل هؤلاء غاية واحدة هى
« حفظ النسل » وقد تجمعت هذه الادعاءات وانسجمت متوحدة فى ذهنى
حين همست زوجتى فى أذنى « إنا سنصبح أبوين » . سوف أصبح أبا ؟
يا لجنون السرور ، بل يا للسرور المجنون ! أحقاً يكون لى ولد له لطف
الملائكة ولغتهم وصفاء السماء وتفتح الزهرة ؟ إذن سأسميه باسم المرحوم
والدى ، سيبقى اسم عائلتنا بعدى إلى الأبد ، ولكن أترانى أعيش حتى
أراه رجلاً يستعجله الطمع فى الاستيلاء على أموالى ؟ سيان عندى ...
سأعود إلى العمل ، وأضعف ثروتى لا لتكون حجاباً بين ولدى والفاقة ،
بل سأمأ يتوقل عليه ليبلغ قمة المجد الزمنى . هذا ما جال فى خاطرى ساعة
وافتنى البشرى السعيدة . غدوت يا صاحبي فى فردوس من الغبطة

والسمادة يرف على خمائلها خيالي الفياض ، وتبدع في زخرفتها وتمنيقها تصوراتي . لم أكن ذلك الراعي وقد صدمت هراوته جرة السمن فاندلقت أحلامه ، وتلاشت آماله وأمانيه ، بل كنت ذلك المحارب الهمجى الظافر لم يصدده النهيم عن الأسلاب والسبايا ، ولم ينتقص الحرص والحيلة من ادخاره استعدادا لموقعة مقبلة .

عادت إلى أطماعي طافرة وتنهت هواجسي وظنونى ، خلت الأيدي التي تعمل في إدارة أعمالى تنهب خيراتى ، وصورلى شيطان الحرص أن عمالى الأمناء أثمروا بولدى ليحرموه ما كسبته طوال أعوام الشباب بعرق الجبين وادخرتها له وحده !

لقد انقلبت طفلا ولا بستنى حالة جديدة ليس فى وسعى تصويرها . صرت أرعى زوجى الحامل كمرعاية الأم رضيعها ، وأحرص على القرش الواحد كما لو كان دينارا ذهباً . كنت أصدف عن الصباح وأزور إذ ألقى ضيوفا فى منزلى ، وددت لو أحتار خيرات العالم أقدمها هدية لولدى العزيز . قلت لصاحبى فى شىء من المباشطة بغية إقشاع السحب المنتشرة فوق نفسه ، يخيل إلى أن « العامل الخفى » فى زوجتك هو الذى جعلك لجوجا وثابا تقدر الأشياء بمقدار التخيل والتصوير . وقد لا يؤذيك إذا قلت لك بصراحة الصديق الصادق إن بلوغك « سر المرأة » ابتمت فىك الشهوة عنيفة حادة .

أطرق قليلا وأجاب « الشهوة حيلة إرادة الحياة الكبرى على البقاء » نحن يا صاحبى نخلق الجمال ونعطى المعانى الأشخاص والأشياء . فالمعنى

الصحيح لسر المرأة الراحة والطمأنينة . صمت هنيهة ثم أردف « إن رجلا مثلي مفطور على العناد والمغالبة والكبرياء لا يرضيه الاستسلام والليونة والركون شأن أكثر الأزواج ... ثم تابع قوله كانت زوجتي ... فقاطعت كلامه قائلاً : انتقل من الموضوع بارع ثم تقول : كانت زوجتي ، « وكانت » هذه تدل على فعل ماض ، فأوماً أن أتريث وتابع الكلام : « كانت زوجتي ، أجل كانت زوجتي على شيء عظيم من عزة النفس والكبرياء والمغالبة ، وأنا أنا الذي أنميت فيها هذه الصفات وتهدتها بدراية وحكمة ، كان يلذ لي أن تعلق حجتها على حجتي فأرضخ للحق ، وأن يصدم عنادها عنادي فتنتهي إلى الرضا ، ولم يبلغ كبرياؤنا في ظرف من الظروف حد الغرور ، بل كنا نخلق الخصومة نوري بها الذهن فنستصبح بومضات الروح منبثقة من ظلمات الجهول ، من هذا التناسق والاتحاد جعلنا مواد بناء حياتنا الزوجية ، وقد استخلصنا من ضروب أنواع الحب في فوضى الحياة خيطا كان لنا بمثابة « الهارموني » من نشيد العمر ، يرتفع بفرحة الغاية من الوجود الإنساني إلى أسمى مقام ، أما خيط حياتي هذا فقد انقطع ، أنا الذي قطعته بيدي ، أجل يا صاحبي أنا الذي قطعته بيدي . لقد حطمت جرة السمن فاندقت أحلامي ، أنا الراعي الغبي ، وانساح أملِي في الرمل ، أنا الحى الضائع ! !

نظرت إلى عينيه فإذا بنورها قد ناص كصباح نضب زيقه ، وأجفانهما تكسرت وجهت فيهما دمعتان ، وعند ما أخذ يتابع الكلام توهمت الصوت آتياً من بعيد قال :

ذهبت وزوجتي ذات عشية إلى وادي العرايش ، وما كدنا نأخذ مكاناً قرب النهر حتى توافد الصباح ، فاتسعت الدائرة ، واتسقت صفوف الأقداح وشعثت النفوس فانطلقت الألسنة . لم تهدأ جلبة السكارى إلا حين ارتفع صوت المغنى يشدو « العتابة » برنين شجي وصوت رخيم تشترك مع معاني العتاب في تطريب النفس وإثارة ما فيها من حزن وفرح ، وقد استفاض صدرى باحساس مضطرب إذ سمعت المغنى ينشد « غربوا أحبائي » وشعرت كأن أحببا تنادينى ، لقد فاض الدمع من عيني وانهمر ، لاشك أنه دمع حنان النفس التي تضطرب فيها الآلام جميعاً ! ! ! ، في هذه اللحظة تلاقت نظراتى بنظرات زوجتى ، فاعتلج في صدرى شوق مفاجئ يدعونى بالحاح إلى العودة إلى أميركا حيث أموالى المتروكة في بلاد الناس ، وعند ما عدنا إلى البيت سألتنى زوجتى متى نسافر إلى أميركا ؟ في تلك الساعة عقدت النية على العودة إلى الوطن الثانى ، وفي تلك الليلة المشؤومة انتهى كل شيء ! ! ، أجل يا صاحبي في تلك الليلة المأمونة انتهى كل شيء في وجودى وبقيت وحدى كحروف رسالة بليدة جائمة على قرطاس .

أخذ صوته يرتفع ونبراته تشتد ، وأمسك يديّ بقبضة متصلبة وقال أنت تعرف أبنية زحلة متلاصقة ومنازلها متلاحمة لا يفصلهما من الجيران فاصل ، قلت أعرف ذلك ، قال :

كنت أسكن بيتاً من هذا الطراز القديم لأنه أقرب إلى إحساسى وألصق بذكرى طفولتى ، هذا البيت الذى كنت إخاله بقعة اقتطعتها الملائكة

من فراديس النعيم قد انقلب بلحظة واحدة إلى قبر في الجحيم تحوطه
نيران قلبي وألسنة الناس .

قلت : اكتشف خيانة ؟

نظر إلى نظرة استخفاف خلتها تهز مكن كبريائي فحجبت ، واستطرد
قائلاً : في هدأة الليل حيث كل شيء هادئ إلا عيون السماء ، دوى الوادي
أوتوهمت أنه دوى بصوت استغاثة قريب صادر عن قلب هلوع ، الحرامي
الحرامي ... النجدة ... النجدة ! وتلاه ولولة امرأة مخلوعة اللب وعويل
أولاد ... استيقظت بلا وعى أترنح من الذعر أو من الشجاعة ، تناولت
مسدسي من تحت الوسادة وهرعت لأقتنص السارق ، لم يكن في وسعي
ترتيب التصورات المتداعية والخيالات التي تراكت في ذهني وازدحمت
فيه مבלلة مشوهة ، توهمت السارق عميداً من عمداء الجبايرة سلطته قوى
مجهولة تتربص بي لتمتزع مني زوجتي أمّ ولدي ، وارث أموالى ومخلد
ذكرى . لقد جن جنون أنانيتي وثار في فطرة ، فطرة الإنسان ،
أو غريزة أبوة بكرية اقتحم وحش ضارع رينها نهبت تدافع عن أشبالها ،
كنت أروح وأجىء وأتوهم أنى أقفز من سطوح إلى سطوح ، أدور
حول نفسى كاللؤلؤ ، أنادى السارق بصوت متهدج أجش ، اختلط
صوتى بمجيج أصوات عشرات الشبان الذين خفوا مسلحين للفتك
بالسارق ، إن السطوح على منزل في زحلة عروس مدن لبنان إنما هو تحدّ
لكرامة أهلها واستهانة بتقاليدهم ونخوتهم ، لمحت شخصاً مائلاً قبالتى
فتصورته عملاقاً من الجن ينقض على ، أحسست بالعملاق الجبار يرفع

يديه ليسحقني ... أطلقت رصاصه أو انطقت من المسدس رصاصه ردد
الوادي صداها أصابت الهدف فسقط الجسم بدون حراك ، أيقظني الانتصار
من غفوة الدهول ، فتنهت إلى نفسي وإذا أرى حولي طائفة من الجيران
أقبلت على صوت الطلق الناري ، سمعت صراخا وعويلا وحسرات فيها
كل معاني الألم والحزن والشفقة ... أشعلت الأنوار ، تجمع الناس ،
تبينت الوجوه ، فإذا بالعيون تحدجني بنظرات أسى وحيرة ملتاعة
مضطربة ، دهمنا الجند فإذا بهم يطبقون على القاتل يجردونه من سلاحه
وقد دل الجيران عليه .

يا للأجناد الأجلاف ! يا لرجال التحقيق ما أطيب قلوبكم لقد منوا
على تكريمهم باطلاق حريري ريثما أرافق جثمان زوجتي فأواريه
التراب ؟ !!! ، ويلاه لقد جهد جسمي في تلك الساعات وتبلد شعوري
وزاغت نظراتي ، كنت أعتصر عيني ، أستجدي قلبي قطرة من دمه ،
ولساني كلمة واحدة أنطق بها ، كنت أرى جثمان « يمنه » مسجى في
النعش على رأسها أزهار الليمون الندى زانته بها يوم إكليلنا وقد غطى
الورد ثوبها الأبيض الغارق بالدم ، وكنت كقمة الجبل الشاهق جموداً
وبرودة . وهأنذا أحس بالوقائع ماثلة أمامي ، أصورها لك وفق الرؤى
والشعور .

أحسست الأرض تدور بي والآلام تنساب في نفسي تنهب وتنوش
أعصابي . أما محدثي فقد اعتدل في جلسته واشتدت نبرات صوته وقال :
من السخرية الاستعانة بالعدل الإلهي واحترام شرائع الناس ؟ ! أليس

رعونة أن تبرأ ساحة القاتل ويطلق من عقاله ولما يجف دم المقتول بعد ؟
 أليس ظالماً أن تعود إلى حرّيتي أنا القاتل الأثيم ؟ أين القصاص من الحياة ؟
 أمن العدل أم من الظلم أن أجوب الأرض ، أتسكع في الشوارع ، أطوف
 حول الذكريات أتلمس آثار الحياة وأنا ميت القلب والروح ؟ ؟ اسمع
 يا صاحبي : ليس العدل والشرائع والقوانين والأديان نفسها تستطيع أن
 تشفى أدواء الناس ، إنما الذي يستطيعها هو الضمير ، . وسأنفذ أحكامه
 التي أرتضيها لنفسى حاكماً محكوماً .

استسلمنا كلانا للصمت : توهمت صاحبي المسكين لا يواصل رحلته
 إلى أميركا بل يترك الباخرة عند أول ميناء في أوروبا يتطوع للحرب حتى
 الموت ، ولكن سرعان ما استلمح هذا الخاطر يتوارى في طيات كلامي
 حتى قال لي ضاحكاً :

أتحسب الموت يقضى على الموت ؟

قلت لا أفهم ماذا تعنى .

قال : ولا أنا أيضاً أفهم كيف أفضى بيدي على حياة أقيمتها
 في غيابات العدم ، بل أفهم أنى سأبقى في فراغ يتساوى والعدم ،
 وسأستهل الموت حتى ألقى في كل ساعة ميته تكفر عن جنائتي .

ظفرت دمعة كبيرة من عيني المسكين فتلقاها بمنديل ، وعند ما هم
 بالذهاب تخاذل وخانته قواه ، تأبطت ذراعه وأسندته على كتفي حتى بلغ
 غرفته في الباخرة ، وإذ كنت عائداً لقيت الطالعة من الأمر وكان وقد تهيّبوا
 سؤالي وانصرفوا يتبع بعضهم بعضاً .

obeykandl.com

غاية الآله
صوتي

obeykandl.com

صديقتي العزيزة نجلاء ،

... وأخيراً تحررت من قيود المدرسة ونجوت من مقاعد الطالبات وفروض المذاكرة والدرس . لقد نضوت الميذعة (المريلة) وحللت ضفائري وصرت إلى ما كانت تتوق إليه نفسي وتهفو جوارحي .

ها أنا ذى ، يا صديقتي ، شبه سيدة في البيت ، تدر بنى والدتى على إدارة المنزل وتديره ، وتحببه إلى نفسي وتقول ، إن شعور المرأة بالمسؤولية عن بيتها يضارع شعور اللذة بالنجاح ، وقالت لى عن الكتب التى لا أنفك أطلعها : يجب أن تكون القراءة تزجية فراغ لا ولما يحول دون اضطلاع فتاة مثلى بآدارة البيت ، أو ينقص من معرفتها التامة بحسن تديره .

منذ تركت المدرسة ولزمت البيت ، انقلبت أمى فصارت لى أختا ، وتحولت رعايتها السابقة لى إلى صداقة فيها حنان وعطف ، يحدوها إليها رجاء وأمل . كذلك أبى ، فقد أخذت معاملته إياى تكاد تشعرنى بأنى دون إخوتى الأثيرة عنده بالرعاية والعطف ، لم يعد يرضن على بشىء أشتهيه ، وكثيرا ما كانت تضطره أمى إلى قبض يده عنها لئيسطها بسعواء لشراء ما تحتاجه فتاة مثلى لا مندوحة لها من الظهور فى المجتمع بالمظهر اللائق بحباها ومستقبلها .

انتعلت لأول مرة حذاء بكعب عال ففرحت ، ولما ألبستنى أمى

فستاناً من الحرير قصير الأكمام ، واسع فتحة الصدر ، كدت أطير من السرور ، لقد تعثرت بأذيال الخجل حينما سمحت لي بدخول الصالون أشاركها في استقبال الزائرات من صديقاتها في اليوم المحدد للاستقبال ، وكاد يرتج عليّ إذا سئلت في أمر من الأمور .

كنت ألتفت بوعي إلى أحاديث أولئك السيدات وهي لا تخرج عن الكلام في الأزياء الحديثة ، وعن يخطب بناتهن والمساومة في البائنة ، وكذلك فيما يقال ويحدث في صالونات لا رغبة لصاحباتها إلا في لعب البوكر والبريدج ، أما أمي فقد قالت لي إنه لا شأن لنا بأمثال هذه الصالونات الخاصة بسيدات ثريات يجار بن البطر بقتل الوقت باللعب والمقامرة ، ولا يأبهن بشؤون أخرى في الحياة .

ذهبت في حبة والديّ إلى النادي ، واقد دهشت ساعة رأيت قاعاته والناس فيها بين قائم وقاعد ، وتبدلت دهشتي بفرح ، وشعرت بالزهو عند ما استقباني الناس من معارف والدي استقبال الحفيّ بالجمال !! النادي ؟ آه يا صديقتي من جلال النادي ، أنوار ساطعة تضيء قاعات فسيحة ، وأبهاء واسعة ، وغرف عديدة مفروشة بالطنافس تزين جدرانها صور زيتية فيها الرائع من الفن ، وفيها العادي الرخيص ، والقاعات تضم طوائف من الناس فيهم الشاب والكهل والشيخ من رجال وسيدات ، أما الأنسات والسيدات اللواتي رأيتهن فكن يرتدين أنحف الملابس ويتزين أجمل زينة كأنهن في حفلة عرس !

ورأيت في النادي شبيبة من فتيان وفتيات ينتحون ناحيات هنا وهناك

ويؤلفون حلقات للثرثرة والضحك ، هؤلاء هم الذين احتفوا بي وأنزلوني بينهم منزلة التراب الحبيب الجميل .

هل أنا جميلة حقا يا صديقتي ؟ ما هو الجمال ؟ هل المسحوق الأبيض وقد طليت به وجهي ، والكحل كحلت به جفوني وأهدابها ، والأحمر صبغت به شفتي وأظافري ، هو الجمال الذي استرعى انتباه الناس فقالوا إني جميلة ؟ !!

لم يمد ذلك الميل الملحاح إلى أمسيات أقضيها عند الصديقات الزميلات ، ولا تلك اللهفة في الحديث عن المدرسة والمدرسات والثرثرة سرّاً فيما كانت تصبو إليه نفوسنا ، بل صار يلذ لي أن أرغب إلى أمي في الذهاب إلى هذا النادي الذي اتخذته طائفة من عليّة قومنا مثابة لاجتماعاتها وتسليتها ، واتقريب العائلات المتناثرة في المدينة الواسعة ، ومما أعجبنى في هذا النادي وجعله حبيبا إليّ ، أني كنت أرى فيه الجماعات والعائلات والشبيبة من فتيان وفتيات يتعارفون بدون ما كلفة ولا تصنع ، ويندمجون كأنهم وحدة مؤتلفة منسجمة ، وكان يروق لي بوجه خاص ، وأفضله على الكثير من الصالونات العائلية لأنني كنت أسمع فيه ما تستريح إلى سماعه نفسي من ثناء يفيضه الناس عليّ إفاضة الكريم ، ولعل أطيب الثناء وأعذبه هو ذلك الذي كنت أتقبله مغتبطة من الشيوخ أو الكهول الرصحاء يصيغون عباراتهم صياغة شعرية تجعاني أصدق ثناءهم فأزهي بنفسى وأفرح ، أما ثناء الشبان فقد كنت لا أستسيغه لخلوه من حرارة الشوق ، تلك التي كنت أحس وهجها في كلمات الشيوخ ولأنه

ينصب على انصبابا، ولكنهم برغم ذلك كانوا يحومون حولي ويتوددون إلى .
 أكاد أتبه عجباً بنفسى ، وخيلاء بجمالى ، لأن والدى يطلقان لى
 العنان فى ميدان الحرية ولا يقيداننى إلا بفروض اجتماعية ، والناس من
 ناحية أخرى يضيفون على من الثناء ما يستفز غرورى ويدغدغ كبريائى .
 أجل يا صديقتى لقد أخذت أحس بالكبرياء وأتشت بأهدابها ،
 وقد رأيت عشرات من الشبان يتزاحمون حولي ويتسابقون إلى مراقبتي ،
 ولقد سمعت شهقات الإعجاب وكلاماً عذبا حلواً لم أسمع مثله من قبل ،
 ورأيت عيوننا وقلوبنا تحوط بى من كل جانب ، فكنت أبادلها خلسة
 نظرات العين والقلب .

لقد أحسست بواجب جديد لا محيد لى من فرضه على نفسى فرضاً
 حتمياً ، مناعة خلقية أقاوم بها التصدى ، وذهن أحص فيه أقوالاً أسمعها
 فلا أجيب عليها ، وأخرى أسمعها وكأنى ما سمعتها ، وثالثة يحسن أن يكون
 جوابى عليها ابتسامه عابرة ، ولكنى عدا ذلك سعيدة يا صديقتى ، وأية
 سعادة فى الحياة تماثل شعور فتاة مثلى ترى اهتمام الناس بها ؟ قال لى
 شاب كان يراقبني أن رائحتى تكاد تدفعه إلى الانفلات من القيود
 والانسياق مع الرغبة وهم بادناء شفتيه .

أبعدت عنى لأنى تعلمت من الراهبات أن القبلات إن لم تكن
 مقدسة فهى محرمة .

قولى لى يا صديقتى ما هى قيود الشاب ؟ وما هو الانسياق مع الرغبة

ومتى تكون القبلات مقدسة وغير مقدسة ؟

لقد تحاشيت سؤال أمي عن معاني « القيود والانسحاق » وعن معنى الحلال والحرام في القبلات ؛ فعمدت إلى معجم اللغة أنقب عن تفسير لها ، وإذا بها تزيد ما بي من عي عن الإدراك ، وإني لأحس في قرارة نفسي بأن معانيها - من غير شك - غير تلك التفسيرات والشروح الجامدة على الورق في الكتب .

يا لله مما بي من شوق ملح إلى معرفة ماذا كان يعني ذلك الشاب الجريء الذي صرت أتجذبه تفاديا من جرأته الخطرة ، وأخذ هو يتجافاني وقد رماني بالصف والغباء ، واكنك أنت يا صديقتي ، سترضين رغبتى وتشبعينها في المعرفة أليس كذلك ؟

يقول أولئك الشبان إني جميلة وفاتنة ، فما دمت فاتنة وجميلة كما يدعون فلماذا لا أجد فيهم جمالا وفتنة ؟

لى الله من فتاة غرة ، قلت إني لا أجد جمالا وفتنة في أولئك الشبان ، إنما أعنى بأني لم أحس بانجذاب إلى واحد منهم أو انعطاف على واحد بالذات ، إنما شعرت بتباين في روائحهم وتفاوت في نكهاتهم ، فبينما كنت مثلا أتشم هذا فأنجذب إليه وقت الرقص ، كنت أنفر من ذاك وأتباعده عنه ، ولم أشعر بحالة وسط بين النفور الكريه والانتعاش الشهى !! .

وأنت يا صديقتي العزيزة ، ماهي أخبارك الخاصة ، هل وجدت فوارق بين حياة المدرسة وحياة البيت والمجتمع ؟ أما أنا فقد كنت أتوقع

حياة خارج المدرسة قريبة من حياة عرفنا أوصافها في روايات قرأناها سوية في جلسة من الرقيبات . . .

أُنيسة

— ٢ —

عزيزتى نجلاء . . .

سرنى ما قرأته في كتابك من أخبارك الخاصة ، وحمدت إليك الشرح المفصل لما كنت طلبته منك ، وقد فهمت معناه ووعيته كل الوعى ، وبهذه المناسبة أقول لك إنى أخذت أفرق بين شاب وآخر ، وأميز ما بين الواحد والثانى ، لا من حيث المظهر والهيئة ، بل من حيث تباين الرغبات وتناقض المآرب وكيفية العرض .

عرفت شبانا أقوياء التركيب ، عراض الجسوم ، تزينهم خشونة الرجال ؛ إلا أن نفوسهم ما برحت تعوم فى الطافولة وتسبح فى الضحل من الحدائة كصغار السمك ، وعرفت سواهم ممن يحلو لهم مباراة الفتيات فى الزينة ومسابقتهن فى أناقة الهندام ومجاراتنا فى التبرج أيضا ، لم أكن أتبرم بهم لشعور داخلى بتمائل غرائزنا ! ولعل أسخف من عرفت من هؤلاء الشبان الذين لا أعرف كيف أسميهم ، بل أصفهم بأنهم أدنى إلى النساء وأبعد عن الرجال ، شبانا يطلقون شعورهم ويفتنون فى تجميدها ، يتميعون فى كلامهم ويترققون ، لكل كلمة عندهم إشارة خاصة ، ولكل عبارة حركة بالعنق أو ابتسامة أو غمزة ، هؤلاء يدعون أنهم من أرباب الفن والفلسفة !.

وعرفت منهم من دأبه التعالي على الفتيات والحط من أقدارهن ،
والاعتزاز بقوته على ضعفهن ، لزعم خاطي متداول بأن الفتيات أقل وعيا ،
وأوضع مكانة ، وأحط عقلا من الفتيان وهم بهذا الباطل يظهرون ، إلا أني
أوثرهم بقسط من احترام لا يستأهل جزءاً منه أو أئتمك المتفنون المتفلسفون .
وعرفت في أكثرهم حالة يعجزني تسميتها ووصفها وأظنها انفعالا
داخلياً ينتاب الشاب فيجعله حيال الفتاة يتحول بلحظة واحدة وينحرف
عن خشونة الرجل المستحبة إلى نعومة فيها استعطاف وتوسل مستحبان
أيضاً لا تقال هذه ولا تلك من صفات رجولته .

كنت ذات مساء جالسة مع والدي وصحبهما من أعضاء النادي ،
فاذا بشاب بادي النضارة تقدم منا فحيا بالحناءة واقتراب مني يطلب
مراقصتي ، لم أتردد ولم أستمهله لحظة واحدة ، بل لببت دعوته برغم أني لأعرفه
ولأحسب أني رأيته قبل تلك الساعة ، ونهضت دون أن أستأذن والدي
واندفعت أتقدمه إلى ساحة الرقص .

لقيت نفسي مغمورة بصدر هذا الرجل ، اتسكاً باطمئنان على ذراعه
المتينة ، رفعت رأسي خلسة لأرى أي رجل هذا الذي غمرني في عبايه ،
فرايت وجهاً حسن القسما ، وعينين لامعتين في سواد ، وأبصرت وثاقه
في العضل ، وقوى في التركيب ، وبالجميل رجولة بائمة واضحة المظهر ، واقد
أدركت ببداهة الفريرة سبب انصياعي لإرادته الأمرة وسلطانه الجبار ،
كما أدركت معنى الغبطة التي ساورتني في رضاي المطلق عن قهره إياي
بقوة إرادته .

أخذت أراقب تنقلات خطواته واتزان توقيعاتها ، وهو ينحرف بي إلى اليمين أو اليسار ، أو يتقدم ويتأخر ، فإذا بها كأنها تبصم الأرض بصما بدون عنف ، كما رأيتني أوازن بين الرصانة والميوعة ، ميوعة أولئك الشبان الأغرار الذين ينافسون الأثني في إبراز أنوثتها ، زاهدين في الرزانة وهي زينة الرجل ، رغبة في التطرف والتأنت ، وهكذا كنت أنقل خطاى نقلا آلياً لأنني كنت منجذبة إلى هذا الرجل الطارىء الغريب ، وعند ما انحبت أصوات الموسيقى وانفرط عقد الراقصين سألتني عن اسمي ، فأجبتته وأنا أحس برعشة اعترتني ورهبة غشيتني لم أحس بمثلهما من قبل ، ولما رغب إليّ بلهجة التوكيد ، أن نلتقي ليلة الأحد التالي في النادي أجبته بتوكيد حازم بأنني سأكون طوع إرادته .

لم أراقص سواه في تلك الليلة ، ولم أسمع منه وقد حان وقت العودة إلى البيت ، سوى كلمة شكر على ما أدخلته من سرور على قلبه .

أه لو علم يا صديقتي العزيزة كم كنت مسرورة ومفتبطة ومطمئنة من مراقبته ، وكم تمنيت أن أكون البادئة بالشكر ، ولكني راعيت آداب السكوت وصرت أردد ، في دخيلة نفسي ، كلمات شكره إياي وأتمتم بها كأنها صلوات لدنية توحى بالأمل والسعادة .

عدت مع والدي إلى البيت ولما آويت على غرفتي وخلوت بنفسي أخذت أرقص بأجنحة من خيالي ، أتمايل وأتماوج كأنني مدفوعة بدوافع داخلية رفيقة نشوى ارتيمت على مقعد وأخذت رأسي بيدي ، وذهبت في ذهول بعيد المدى ، واسع الأرجاء كأنه والفراغ سواء .

لم تكن أرجأى التي ظنت بها فارغة خاوية كما قلت ، بل كنت بذاتى
أنا الفراغ الخاوى من الرغبة الخالى من القصد ، وما كنت فى الحقيقة
سوى نفس تفتحت للحياة وهى تجهل مآرب الحياة وغاياتها .

نضوت ثيابى ، وتوسدت فراشى ؛ أظفأت المصباح وأغمضت جفونى ،
تنبهت فرأيت شمرايح سحب تمتد فى سماء فكرى ، وقد لحت
من خلال ما تلبد فيها من غيوم أشباحا للراقصين لم أتبين منها
سوى صورة ذلك الشاب الذى فاتنى السؤال عن اسمه كما سألتى هو
عن اسمى ؛ أجل يا صديقتى . لقد رأيت صورته ماثلة أمامى ، مسندة الخد
على وسادتى ، ولمست بالوهم شعره الكثيف الخشن ، وسمعت وسوسة
الوسادة كأنها تحاول الهمس فى أذنى . ليس لى عهد فى همس الوسائد ،
ولا فى دغدغة الفراش ، ولكنى أحسبت كأن لهذه الأشياء شفاهاً ريانة
ملتبهة تقبل بشوق وحنان فنت على قبالات من الوهم اللذيذ والفتنة
الشائعة فى

لم أستقبل فجر اليوم التالى كما دتى ، وأقبل الضحى ولما أبحر سرى
بعد انصرم النهار ، وكنت فى غضونه أترنح بين انفعالين ذاتيين يجد
متناقضين ، انفعال يقذف بى بعيداً عن نفسى فأستسلم على غير وعى إلى
الذهول والسهوم كأنى قوقعة منكشة داخل صدقتها ، وانفعال آخر ياتى
بى فى حيز الأمر الواقع المادى المحسوس فأرقص مع من أراه يرقص طرباً
حولى ، وكان كل شئ يظرب ويرقص معى .

أخذت أعد أيام الأسبوع بالساعات والدقائق أستحشها على السرعة
ولو خالفت الزمان في نظامه لتصل ظفيرة إلى ليلة الميعاد .

في عشية اليوم الموعود ، قمت إلى خزانة ثيابي وقد أترعها والدي
بالمستحدث المبتكر في الأزياء فاصطفيت ثوبا أزرق صافيا كزرقة السماء
فلبسته قبل أن أصف شعري وأصلح زينتي .

رأيت في صفاء لون الثوب ما جعلني أفطن إلى أني أهيا جواً هادئاً
بيد أن نفسي تثب وتتطلع إلى حركة حياة غير هادئة ولا ساكنة .
نضوت الثوب الأزرق الصافي بنزوة وحدّة وارتديت ثوبا زاهرا اللون
كحمة الشفق .

صفت شعري ، وجملت وجهي فجعلته أدنى إلى الطبيعة في مستهل
الربيع ، وأبعد من الفن المجتلب ، وزينت صدري بزهرات بيضاء . أقيت
نظرة أخيرة إلى المرأة ، وإذا بي ألزم الوقوف قبالتها وأسأل نفسي . هل
تراني أروق في عينيه . . . ؟

أقد أجفاني سؤالي ، فرجف قلبي وكدت أبكي !!! والكني تداركت
الأمر وتساءلت مرة أخرى : أأست أنا السائلة ؟ أأست أنا المسؤولة ؟
آه يا إلهي بماذا أجيب نفسي ؟ ؟ !!

صرخت متأوهة من هذه الخواطر المضطربة والأفكار المتداعية وقد
تلوّنت بلحظة واحدة بكل لون من ألوان الأشياء وأضدادها ، وقد انسرح
فكري وغرق ثانية في اللاشيء .

ماذا يجدي يا صديقتي الانسراح في الفراغ إذا ارتكر الفكر في دائرة

ضيقه لا يتخطاها ؟ لقد وقفت وخيل إلى أنى إن التحول عن الوقوف عند هاتيك النقطة حتى تجيبني نفسى جوابا يطمئئنها بأنى سوف أرضى ذلك الشاب المجهول الذى ينتظرنى .

قلت أخاطب نفسى : لقد شممت بنظراته تخترق حجب نفسى فتفتتح له أبوابها حتى مغاليق قلبى ، فهل تراه أبصر استسلامى الراضى فأدرك خطأ أو استنتج أنه الترامى المطلق فى سلطان الرجل وأنه الجاذبية الطبيعية التى أخذت بها ؟ هل تعنى نظراته تلك غير التفرس والتثبت ؟ وهل يتقصى ويتثبت إنسان بغير دوافع من الرغبة ؟ وهل لهذا الشاب رغبة فى غير تلك التى يحتاج لها وجدانى ؟ ولولم أرقه هل كان راقى ؟ ؟ إذن لا بد أنى أروقه !!!

فى هذه اللحظة التى ثبت فيها إلى صوابى ، فى هذه اللحظة يا صديقتى العزيزة دخلت أمى غرفتى فلقمتنى جالسة أسند خدى بكفى ، لقد أحست بأن رأسى مثقل ينوء بما يصطخب بداخله ، وسرعان ما وضعت يدها على رأسى ومسحت بكفها شعرى حتى نهضت من مكاني وأنا أضحك وأبكي فى آن واحد .

أخذتني أمى الحبيبة بين ذراعيها وضمتني برفق كأنها مواسية وهى تعلم حق العلم أن النفس الجياشة هى التى تضحك وتبكي ، ولكن ماذا يعنى البكاء ؟ وماذا يعنى الضحك فى مثل هذا الحال ؟ هل يعنىان غير الأمل الزاهر بما هو مقبل أو بما هو مفروض أنه مقبل سعيد ؟ ؟ كفكفت دموعى ، وأصلحت ما انساح من سواد الكحل على

خدى . لم أكذب على أمى حين عزوت البكاء والضحك إلى حالة نفسانية طارئة ، ولم أتمد المغالطة حين قلت لها إنى لا أعرف بالتحديد ما بى ولكنك أنت يا صديقتى العزيزة ، تدركين الإدراك كله معانى بكائى وضحكى ، وفرحى وذهولى .

جلست مع والدتى فى إحدى قاعات النادى . است أدرى سبباً لانزوائنا فى تلك القاعة البعيدة عن حامية الرقص ، ولكنى أدركت سرّ هذا التدبير الحكيم الذى دبره والدى حين أطل علينا الشاب المنتظر يصحب والدته العجوز وشقيقته وقد كانت قريبة الشبه به .

كاد يقفز قلبى حين رأيت هذه الأم وقد كالم الشيب رأسها ، ولم يسترع انتباهى فى أخته سوى أناقتها فى هندامها ونظراتها الفاحصة ، أما هو فقد كان مثالا للجد والرصانة .

لا ترمينى بالتطرف إذا اعترفت لك يا صديقتى العزيزة بما كان يخامرنى فى تلك اللحظة فإليك وحدك أقول : وددت أن أتقدم ، أنا الفتاة لطلب يد هذا الشاب فأسبغه إلى حقى الأول فى حياتى وأكون البادئة فى طبع قبلة الخطوبة على جبينه ولكن ولكن العادات والتقاليد الموروثة جعلت والدته وشقيقته تنفردان بوالدى للمداولة بأمر زواجنا !!

أما خطيبي فقد أخذنى من يدي ومشيننا إلى ساحة الرقص ، كنت أشعر ساعتئذ أنى أجس الأرض وأطأها برفق وتيه ، وأزهو بكبرياء على الجمع الراقص وهو يتحرك أمامى كالأشباح .

قال لي ونحن نرقص « أتمنى أن تكوني لي خير زوجة ، أما أنا
فأنا أكون لك زوجاً حبيباً وسنداً قوياً فما قولك » .

لم أجبه على قوله هذا المفرغ بقالب فيه الكثير من معاني الرجاء
والظفر بسوى نظرة صامتة من أبسط معانيها الرضى المطلق . ولما طلب
منى أن أجيب بنعم أولاً قلت : « أما (نعم) فأقولها لك بفرح ورضا ،
وأما كلمة (لا) الحازمة فهي لأبي وأمي

أبنيمة

— ٣ —

عزيزتي نجلاء :

لقد أطلت عليك سكوتي يا صديقتي العزيزة . « كم من مرة حاولت
انتهاز المنية القصيرة لأخلو بنفسى فأكتب إليك ، أو بعبارة أصحّ أصور
لك حالى عقب خطوبتي تصويراً واقعياً ، ولكن الطوائف النفسانية من
متولدات الساعة كانت تحول دون تنفيذ رغبتى ، وكثيراً ما لجأت إلى وجدانى ،
وجاشت عواطفى ، فكنت أحس إحساس الواثق بأنك أنت المنفذ الوحيد
يرفقه عنى لواعجى ويهدى من حدة انفارى فى الغبطة ، والغبطة يا صديقتى
بخار من السعادة الروحية بعيدة الغور سحيفة القرار ، غير أن الطواجز التى
أحطت بها ذهنى ، والقيود التى قيدت بها تفكيرى ، جعلتني شبه محتجزة
ضمن نطاق ثابت الحدود لم أحاول قط تخطيه أو الإفلات منه .

أبسنى خطيبى خاتماً من معدن البلاطين محلى بالماس الدقيق وقبيل

جيبني ، وأعقبته أمه فألبستني خاتماً مرصعاً بججر من الماس الأزرق كبير الحجم وقبلتني ، وقد حاولت أمي أن تزغرد فخنقتها دموعها .

انهالت على قبلات المهينين والمهينات فيكنت أتقبلها بالشكر والابتسام والدعاء ، ولكن ذهني قد انصرف ، في تلك اللحظة ، إلى شيء واحد ، إلى أمر بسيط أقوله لك أنت يا صديقتي العزيزة . أتدرين ما هو ذلك الأمر البسيط ؟ ألا تضحكين مني إذا اعترفت لك به ؟ ؟ !

آه ما ألد الاعتراف والإفشاء بسريرة النفس . لقد ذهبت ساعة قبلي خطيبي بعيد إلياسي خاتم الخطوبة ، ولم يكن مبعث ذهولي هو الشعور بمسؤولية الحياة الزوجية تحيط بي كما أحاط انخاتم بنصري ، ولا بالفرحة السعيدة تغمرنى بالهناء ، وقد أتممت حياة إنسانية وأكملتها ، ولا باطمئنان واعتباط ساوراني عند ما رأيت كيف خطيبي منبسطة قوية ، بل حينما لمست أصابعه الخشنة بنصري الناعم الدقيق ، حينذاك أحسست بالشعور يتحول فجأة إلى نبضة عميقة هزتني وراحت تنساب هادئة في جوارحي ، وأخذت على فرط ما بها من لذاذات ، تتضاءل وتفتى في فضاء ذياك الشهور السري العظيم !! !

ابتسمت لوالدي ، وكان يجانبي ، ابتسامة الشكر على ما عاناه من مشاق الأبوة نحو فتاته وقد طرح مسؤوليتها على منكبي رجل كفء خليق بالاصطلاح بنصيبه من مسامرة الحياة والتساند معها في تحقيق غايتها ، أما أمي فقد مزجت دموع فرحي بدموعها عند ما قبلتني وكأني بذلك تسلمت منها مقاليد « واجب الزوجة » .

كنت أقرأ في ملامح الناس وتهانيهم معاني التوجيه إلى سبيل الزوجية ، وقد استنتجت من ثروة مجاز السيدات المهنيات أن خلف الزواج قيوداً ومسئوليات وواجبات .

مرت تلك الخواطر ببالي مروراً خاطفاً ، ولم أحاول استمهال خاطرة واحدة منها ، لأنى من فرط اغتباطى ، كنت أتمنى لو فى وسعى الإعراب عن كل ما بى لخطيبى الحبيب ، وقد تفتحت له جوارحى ، ولكن هيهات فى موقفنا ذلك !

عرفت سريرة كل صديقة نحوى ، ولم أكن أعرف أن خطوبة فتاة مثلى تكون مثاراً لإطلاق السنة رفيقات المدرسة فى المناقب والمثالب وبعثاً على إعلان بعض تصرفات طفولية لى إبان أعوام الدراسة لتصل عن طريق الوشاية إلى مسمع والدة خطيبى .

أخذت والدتى تتشاغل فى البيت لتقلل من ترددنا على النادى ، وتنتحل الأعدار لإبعاد الزائرات رفيقاتى عنى لتترك لى متسعاً من الوقت أخلو به إلى خطيبى أنعرف سبحانه وخلائقه .

آه . . . لقد نسيت أن أسألك يا صديقتى العزيزة ، هل بك من الفضول يا ترى مثل ما عند بعض الصديقات وقد سألتنى معنى الفارق فى طعم القبلات المقدسة وغير المقدسة ؟ أما إليك فأعترف بأن قبلات خطيبى ليست هى « مسكن موضعى » كما قالت لى إحدى الرفيقات المداعبات ، إنما هى مسة روح تسرى فى المسارب فتترطب كل جزء من ذرة فى خلايا كيانى ، أما قبلاتى له فكانت تشعرنى بظماً وقلة ارتواء .

صدفت عن النادى هربا من الناس ، ومللت الرقص برغم ما فيه من
مرح ومن راحة أجتليها على ذراع خطيبي ، وصرت تواقفة إلى الزهات
في البرية الخضراء الطاق أستنشق الهواء ملء رئتي وأصم أذني عن سماع
همسات الناس لأبصر بعيني قلبي على غبش غروب الشمس وجه حبيبي
وقد تحول إلى تكلام ثرثار بعد إذ كان صموتا ، يخاطب قلبي بعينييه
الناعستين !! .

لى الله من طفلة هوجاء !! . . . أى هوج يا صديقتي ذلك الذى
تعلمته فى السينما فتوهمت أن فى تطبيقه عمليا ما يجب السرور إلى قلب
خطيبي فجاءت النتيجة متلوقة معكوسة .

مددت أناملى إلى شفقى خطيبي اياشهما ، وكنت أتقنت تقليم أظافرى
وتطبيبها ، ولسكنه لم يحجم عن تقبيلها ولم يقدم ، بل قبض عليها برفق
ولها فصارت كضمة من الزنبق (اليوسفى) ونظر إلى نظرة العاتب على اقتباسى
غير المؤلف من عاداتنا ، فلم يسعنى إلا التكفير عن هذد الهفوة بالانكباب
على يده أقبليها ، وغدوت أنظر إلى زوجى العتيد نظرة الاحترام وأفوقها
على نظرة الحب .

لتطل يا عزيزتى أيام الخطوبة إلى شهور ، واتدم زحمتها طويلا
فانى أكاد أحس بأنى تحولت إلى ما يسمونه « الحركة الدائمة » التى
لا تفر لحظة واحدة عن العمل ، وأخشى إن هى توقفت ، ولو لحظة واحدة ،
أن أكون سبب الخلل أو العطب أو التعطيل .

أرجو يا صديقتي أن تبقى بعيدة عنى لأتمرس فى كتابة هذه الاعترافات

التي يملها وجداني الفؤاد رغم اشتياقي إلى رؤيتك واجتلاء رسوم فرحت
مطبوعة على صفحات وجهك الواضح .

لقد قال لي خطيبي الليلة : إن زواجنا سيكون بعد شهر قليلة ،
كم أتمنى يا عزيزتي أن أبقى ظمأى لشهور طويلة لأن الظمأ مزكاة للعقل
والروح . . .

أنيبته

— ٤ —

يا نبجلائي العزيزة :

صحيح ما قلته في كتابك ، إني كنت موزعة اللب ساعة الاحتفال
يا كليلي ، ولكنني كنت في ذات الوقت يقظة النفس خصوصا حين
قبلتك بعيد الانتهاء من هاتيك المراسيم التقليدية ، لقد كنت أشبه
بالقابض زمام نفس لاهي بالجروح الشرود ، ولا هي بالطبيعة السائلة
القياد فكانت تتجلى صور المدعوين من أصدقاء وصديقات ومعارف أمام
مرآة نفسي ، فأرى ماضي علاقتي بهم بكامل أوضاعها ، وصرت أهدم
وأبني ، وأححو وأثبت بطريقة عين ، مستقبل صاتي بأوائك الناس من
أهل وأصدقاء ومعارف ، وما كدت أنتهي من ذلك العرض الغريب
حتى لقيت صحائف سجلاتي مطموسة فيها أكثر أسماء من كنت أصادق
وأعرف من الناس لأنني صممت على أن أحيي لزوجي وبيتي .

اندفع بنا القطار نحو مصر العليا ، وقد بدأ سيره بطيئاً وثيداً كمن
يقتلع قدميه من ثلج هش ، كانت الأرض منبسطة خضراء ، لا روبة
مرتفعة تحجب ما وراءها ، والنخيل على جانبي الطريق بقاماتها الباسقة ،
وأغصانها المفروشة كمظلات فرعون ، أعطال آذانها ، أى غير محلاة بأقراط
البلح الأحمر القاني والأصفر الصافي . . . آه كم وددت لو يندفع القطار
فيسابق الرياح فأصل وزوجى إلى «أسوان» نستطلع طلائع الحياة الجديدة .



. خرجت وزوجى فى نزهة إلى الشلال وسمعت هدير الماء ،
وأصغيت إلى توقيعها الأجرى على أوتار متزنة النبرات ، ورأيت ذراتها
تتطاير وتتساقط كدموع الفرح ، وألوانها تتبدل وتتغير ، وحبابتها تفرق
وتتطفو ، تتفرق وتتجمع ، تجيش فى البكاء وتقهقه ضاحكة ، ورأيتها
بأم عيني تغفو وتنام على ساعد رجلها (النيل) العظيم !!!

ما أعظم شلالات الحياة الدايقة ، ما أروعها فى جلالها ووقارها ،
ما أحلاها فى صفوها وسرورها ، ما أجملها فى غفوتها وصحوها ، ما أبدعها
فى توفرها وتحفزها ، ما أبهاها فى شراستها وافتراسها ، آه ما أنهاها فى نوم
عميق تستعيد به القدرة من جديد لعراك جديد ، لقد أحسست بكل هذا
الاندفاق الروحى فى شلالات الحياة مع زوجى الحبيب .

شهر واحد كأنه ساعة من صفوة الحياة ، ومتعة كاملة من اللذات ،
وفيض شامل من الاطمئنان ، واستسلام مطلق للحب ، وهناءة هى السعادة
فى كنف الرجل .

شهر واحد لم أنحرف في غضونه عن محراب حبي ، أسجد بجوارحي وأصلى ، أتبتل بروحي وأتمم . يا إلهي كيف يزعم الزاعمون أن السماء تسيح بوجهها ، وتوقر سمعها عن رؤية قلبي زوجين حبيبين وعن سماع همساتهما الزوجية ؟ محال على باري الإنسان أن لا يرنو إلى قلب زوجين حبيبين



. وعدنا إلى بيتنا ، هذا الوكر الذي لم أره بعد وطلما حدثني عنه زوجي الحبيب حديث المبتدع المقتن في حبك حدث مفاجي لطيف سار ، هذا العش الذي قال إننا سنبذر فيه بذور بقاء الحياة ، ونفرخ فيه أفراخ تسلسل الوجود ، هذا البيت الذي طلما غرقت في تصورته أفكارى ، وانعمرت في تكوينه تصوراتي وتخيالاتي وأحلامي .

لقد استقبلتنا حماي عند بابها بابتسامة عريضة هادئة ، هي بسمه الأم المطمئنة وقد رأت ولدها رجلا في بيته مع عروسه يمثل دوراً كان مثله والده معها من قبل وقالت : لم أرد إخبار أحد من عائلتنا بعودتك لتتمتعنا بليلة هادئة بعد سفر طويل ، ثم عادت فقالت : لا يحق لعجوز مثلى أن تعكر صفو عروسين في وكر سعادتهما ، لقد هيأت لكما يا ولدى طعاماً وإني عائدة إلى بيتي فأتمنى لكما ليلة سعيدة .

قبّلت حماي كما لو كنت أقبل أمي ، وهكذا فعل زوجي وطفقنا نرتاد غرف البيت وكنت أخنق في صدري فرحة كبيرة بأحلام السعادة تحققت كادت تفضحها دموعي ، فلم يسعني إلا تطويق زوجي بذراعي وقد

زَيْن بيتنا بكل ما يروق ويفرح فناة طموحة مثلى وزوده بكل ما يشعر
بالراحة والبقاء مع مراعاة الذوق والفن .

أخذت أشعر بأنى سيدة فى بيتى ، وقد تمت سيادتى المطلقة عليه
حينما أسلم إلى زوجى الحبيب عرشه وصولجانه .

آه يا صديقتى العزيزة . ما أحلى قيادة البيت وما أطيب ما تحسُّ

امرأة رضا زوجها عنها لحسن إدارتها شئونه . لم أكن أغالى فى الترحاب

بوالدى وإخوتى لئلا تشعر حماى وأبتها بعدم المساواة فى الود بين الأهل ،

وكنت حريصة على احترام حماى حرصى على احترام ابنها زوجى الحبيب .

صرت ضيقة الصدر ببقاء الأصدقاء والصديقات وأخذت أقول : إنه

خير لى أن أرمى بفرية تجرح الود الاجتماعى من أن أصاب بجراح من

السنة المجتمع وتقاليده المدخولة ، لأنى أضن بزوجى أن يكون نهياً لعيون

الزائرات المتشوفات ، ومطعماً لسالبى المال بالميسر ، كذلك أبخل ببيتى

أن يكون مباءة لصداقة ما كانت لتكون بين المتعارفين لولا حوافز من

أطماع فى إشباع المعد ، وملء الجيوب وإطلاق الألسنة تلوغ فى القال

والقيل ، وغدوت لأحب سوى زوجى الحبيب ، وبيتى العزيز وأهلى

الأوفياء

أنيسة

نجلاء يا عزيزتى :

إنها لفرحة عظيمة وبشرى يطير لها اللب سرورا ، ومفاجأة لذيدة تلك التي جعلها إلى البرق ينبئني بزواجك يا صديقتي العزيزة ، لقد صرخت بدون وعي حين قرأت البرقية صرخة صادرة من أعماق نفسي استرعت انتباه زوجي فهول نحوي يستطلع الخبر فإذا بي أتعلق بعنقه فأقبله ، ثم أتركه لأقفز وأدور حول ذاتي وأبكي وأضحك في آن واحد والبرقية بيدي أطوحها في الفضاء فرحا .

استوضحني زوجي معنى هذه الفرحة المجنونة ، فقلت له وأنا أهل وأمرح كالأطفال إني معتبطة بزواج صديقتي الوفية ، بزواجك أنت يا عزيزتى نجلاء فضمني إلى صدره وقباني ثم أخذني من يدي وأجلسني على المقعد وسألني إذا كنت سعيدة في حياتي الزوجية .

لم أجب على ذلك السؤال بل أتيت بحركة أرضت زوجي فقباني ثانية وانصرف . آه لو كنت قريبة منك أقبلتك قبلة الإخلاص ، لأن ما من شيء يقر الفتاة في قرارها الطبيعي سوى الزواج ، ولكنك انتهت عليك بطوائف من الأسئلة والاستيضاحات .

أهنئك بجوارحي وأقول لم يبق من شؤون الحياة شيء يكتبه بعضنا عن بعض ، كذلك لم يعد ثمة حاجة إلى أمور نحس معرفتها ونشعر بها ونحجل من تسميتها بأسمائها الحقيقية . والآن أعود لحديثنا الأول .
علمان من حياة زواجنا ودعناهما منذ وقت قريب ، وقد أقام زوجي

عيداً لم أشأ إشراك غير أمه وابنتها ووالدي وإخوتي فيه لأنهم خير من يطرب لفرحنا ويفتبط بسعادتنا .

عامان ما أحلاهما من عامين ، كأنهما يا صديقتي نسخة أصيلة من الشهر الأول الذي صرفناه في « أسوان » بل هما سلسلة محكمة الحلقات نجهل أين مبتدأها ومنتهاها من هناة وصفاء وحب .

عامان كأن كلمة « كن » المبدعة كانت على شفتي وقد أطلق الله العظيم سحرها في فمي وسخر زوجي بتنفيذ ما ربي بحيث ما كنت أنطق بها حتى يحقق زوجي الحبيب رغباتي وفق إرادتي أو نزوتي بدون ما تردد أو تمهل .

عامان لم أشعر خلالها بما يمس مزاجي أو يחדش حسى ولو من بعيد ، حتى خدم البيت اقتدوا بزوجي فصاروا لي أحياء يقومون بواجبهم كاملاً إرضاء لي ، كذلك حماتي العزيزة وابنتها المحبوبة كاتتالي خلال العامين خير صديقتين عرفتا الفروض والواجبات واقنتاني إياها على أكل أوضاعها الطبيعية البسيطة .

عامان ، برغم كلالهما في ظواهر العفاء وتماهما في هناة الحياة ومتعها ، كانا ناقصين يا صديقتي العزيزة نقصاً كدّر حياتي ونقص على صفوها ، وأزعم أن شعور زوجي الحبيب بهذا النقص لم يقل عن شعوري به ، ولكنه لم يظهر لي مطلقاً ما يوصي إلى ذلك النقص البغيض ، ويكفي أن أعترف لك بأن ذلك الشعور بالنقص كان في كل شهر يداهمني ، فكنت

أظن الظنون الطائشة بنفسى ، وأخن تخمينات قد يكون زوجى الحبيب
بريثاً منها ؟!

كنت أترنح بين خاطرين متناقضين وشعورين متباينين ، خاطر
الأنانية المتجسدة في حب الذات المطلق ، وشعور بمساوقة الطبيعة ومجاراتها
في إتمام غايتها كما براها مبدعها في الوجود للبقاء ، يضاف إلى جانب ذلك
إحساس بأن فروض الحياة الزوجية قد بلغت بى أو بلغت بها ذروة الكمال
وأصبح لا محيد عن تطور جديد ليس فى طاقتى إيجاده أو افتعاله ولكن
لا بد منه ؟!!

لست ، يا صديقتى ، أسابق التطورات المرتقبة ولا أنا بمتهاونة بها غير
متهيئة لاستقبالها ، ولكن الطبيعة ، ولكأنى بالطبيعة ضئيلة ، فهى إن
تكارمت ومسخت تعود فتضن ، كأنها تزن ما تعطى وتقدر ما تهب من
موجودات لا تقل مع الزمان ولا تزيد .

رأيت بيتى بعين الوهم كأنه الفردوس الذى طرد منه جدنا الأول ،
فنفرت منه ، وباركت نفسى الأرض التى انطاق فيها آدم هائماً على وجهه
مع أمنا حواء التى تحمل فى أحشائها للعالم الجديد آدم آخر .

ثم عدت فرأيت بعين الخيال فردوسى فيه جنات وفيه أنهر وفيه
« آدمى » هو زوجى الحبيب واستيقنت أن لحيات فيه سواى ولا غوايات
غير غواياتى . وفيه أيضاً شجرة واحدة غير مشمرة هى أنا المسكينة ، فبكيت
خشية أن أكون تلك التينة التى لعنها المسيح لعقمها .

بهذا الشعور الهادئ ، الكامن تارة ، والثائر تارة أخرى استقبلت
المام الثالث من زواجنا .

وحدث ذات يوم ذهبت فيه بصحبة حماتي نستروح في إحدى
الضواحي ، وهذه المناسبة أقول لك يا صديقتي لو أن كل كنة أوسمت
صدرها لحماتها كما أوسعت صدري لحماتي ، أو لو أن كل حماة أطلقت
كفتها على كل ما أطلعتني عليه حماتي المحترمة ، لانتفى الخصاص
الطبيعي بينهما .

قالت لي مرة ما نصه : « لقد قت بواجبي كزوجة وأم وربة بيت ،
ولست أدري على التحقيق إذا كنت أرضيت المرحوم زوجي في حياته ،
أما أنت فلم تشهد لي بعدُ بأني أحسنت تربية ابني زوجك الطيب ،
ولكنني أعرف أنني أنهيت فريضتي في الحياة كما عرفت أنه صار لزاماً عليّ
أن أتنازل عن سيادة بيتي لتسكوني أنت ربته ، وأن انحرّف عن طريقك
لأنه لا بد لك من إطلاق سلطانك عليه وعلى من فيه .

لا أقول لك يا ابنتي ان الحماة أوفى دراية في تدبير المنزل وإدارة
شئونه عن كنتها ، بل أعترف أن تدريب الحماة كنتها إنما هو افتيات
على الكنة وصدمة تشعرها بالنقص في شخصيتها ، فالخير للكنة أن تفلط
فتصحح أغلاطها المنزلية بنفسها ، من أن تنصحها حماتها ، أو تدلها على
ما يجب عمله ، لأن وقع النصيحة أبلغ أثراً في كرامة الكنة وأشدّ إيلاًماً
لنفسها من الفلظ ذاته ، لذلك تركتك لنفسك ولشعورك الطيب في حب
زوجك وحب بيتك وحب نفسك »

أعود فأقول لك يا صديقتي العزيزة : حدث ذات يوم ذهبت فيه بصحبة حماتي إلى الضاحية نستروح ، فوقع نظري عفوياً على شاب يابس ثياب العمال ، ما كدت ألمح وجهه الشاحب وشعره الكستنائي الأشعث حتى قفز قلبي إلى عقلي يذكره برفيق طفولتي هو ذلك العامل بعينه الذي يتهدى من التعب في العمل .

تمهلت في مشيتي أراقب خطى هذا العامل التعبان ، وكأني كنت أراه يوم كنا طفلين نلعب سوية قرب باب بيتنا ، ولم أستفق من هذه الطارئة المباغتة إلا بعد فترة ليست بالوجيزة وقد ابتعد العامل بعيداً عنى وغاب .

ما الذي جاء بي في تلك الساعة من النهار إلى تلك الضاحية ولم تطرقها قدماي من قبل ؟ هل أجد رفيق طفولتي إذا عدت في اليوم التالي ؟ هل أراه فأملأ عيني برؤياه وهل يشترك قلمي معي في رؤيته ؟ ! هل تراه يعرفني أم أن صورتني نصت من ذاكرته ؟ هل يعود فيذكر ساعات طفولة بريئة سعيدة كنا نقطعها سوية في لعب صبياني ، تارة في خصام لا ينطوي على عداوة ، وتارة في وئام هو الطهر بعينه ؟ هل تراه يعود فيذكر كم كانت أطاعه أشعبية في الحصول على بعض ما هي من حلوى . وكم كان مبلغ سروري بتخصيصي إياه بقسم مما كانت تتلى به جيوبني من البيت فسكان يؤثر انزاعها مني غصباً عن إعطائه إياها كرمًا مني ومنة عليه ؟

لقد كبر ذلك الطفل فصار شابا يعمل ويكافح ويجاهد في سبيل الكسب ، وأزعم يا صديقتي أن الشاب لا يعمل ويكافح ويجاهد في سبيل الكسب وإملاء المعدة فحسب ، فهو لا بد مسوق نحو « غاية » قد تكون في الغالب مجهولة عند أكثر الناس وقد تكون معلومة الرسوم والحدود عند البعض من الناس ، ولا أحسب أن هذا الشاب بالذات إلا أنه يعمل ويكافح ويجاهد لأجل غاية معلومة لا تتخطى دائرة إشباع المعدة، وفي ظني أن الغاية لا تكون تامة عند الشاب الحصيف إلا إذا اقترنت بوجود المتمم ، والمتمم ذاك لا بد يكون فتاة تقع في نفسه موقع الرضا ، فمن هي الفتاة يا ترى التي ستكون محط آمال رفيق طفولتي هذا ؟ !!!

أتراه يسعد بفتاته كما يسعد زوجي بي ، أم تشقى المسكينة كما أشقى أنا البائسة بغير حمل ؟ !!!

رأيته يتدثر ثياب العامل فهو لا بد شقى أو هو غير سعيد على الأقل ولكنه على كل حال خشن قاس . آه إنى لأذكر صلابته في الطلب ، وصوته الأمر ، وإرادته النافذة ، ويده القوية تنتزع منى الحلوى التي كنت أخصه بها يوم كنا طفلين .

أى فارق عظيم بين زوجي يتطلع إلى همسة من رغبة تنطلق من بين شفتي فيحققها لي على الفور وقد تكون انفلتت عن نزوة لا عن رغبة ، وبين ذلك الطفل المفطور على إرادة أمرة يلين لها كل صاب متين في خلق المرأة ؟ !!!

أين هذا الشاب العامل المسكين من زوجي الثرى الكريم ؟
أرى في زوجي قوى الجسد والمال ، والمعرفة والجاه ، ولا أعرف
في هذا العامل سوى قوة واحدة جذابة أخاذة ، عرفتها في طفواتي ، أخلق
بي أن أقارن وأوازن بينه وبين زوجي ؟ ! !

لقد رأيتك اليوم فقط فكانت الرؤية هذه مثاراً لحساسية أجهابها ولم
تنبه في تلك الحاسة الهجيمة المبيدة إلا عند ما رأيتك بعد طول غياب ،
هل صار لزاماً عليّ أن أقارنه بزوجي وأفاضل بين الرجلين ؟ ! ! !

آه يا صديقتي العزيزة ، لقد مرت كل هاتيك الخواطر بذهني مرور
البرق اللامع فأضأت جوانبها في نفسي ما كنت أحسبها مظلمة أو عتمة
كما رأيتها في تلك اللحظة ، وقد أحسست كأن عيني حمتني أبصرت كل
ما في نفسي وجميع ما ارتسم فيها من خواطر ومرآئي وأحاسيس فاستحييت
من نفسي وخبجت من حمتي وأخذت أجمع خواطري المنفوخة وألمها
كما تلمّ سيدة ثيابها وقد لعب بها الريح وهي في طريق عام .

عدت إلى البيت ولكني لم أعد فيه سيدة عالية . بل غدوت كالزاحل
عن كل ما كان حوله إلا عن المقارنة والموازنة .

كنت أرى يا صديقتي رؤية المتحقق المتيقن أن رفيق طفونتي
في الدرك السحيق وزوجي في القمة العالية ، وأرى نفسي بين هذا وذاك
وأقول : هل في المستطاع بلوغ الواحد دون الابتعاد عن الثاني ؟ كنت
أقلب الطرف تارة بزهو وجشع صوب فوق وتارة برغبة وشهوة صوب
تحت ولكني على كل حال غدوت بعيدة عن الطرفين السحيقين .

آه كم من ساعات من النهار قطعتها في قلق واضطراب كانا يتحولان في حلم اليقظة إلى نشوة من الغبطة ! ! وكم من مرة مثل لي الوهم صوراً حية لأشياء مادية خالية من الحسن والحياة ولكن خيالي الجامح كان يجعل للمبرد أو المشار أو الآلة التي يديرها رفيق طفولتي إبان عمله صورة آدمية لفتاة جميلة بالغة الفتنة والأنوثة المغرية بالدلال ، فتشور غيرتي وتضطرم رغباتي وتعتلج لواعجى لأنها أدنى إلى حاسته اللامسة منى أنا الرفيقة المنسية ! ! وكم من ساعات من الليل صرقتها بين ذراعى زوجي كأنى القمة الباردة أو الجثة الهامدة .

كم من مرة يا صديقتي ، جاهدت بعناء حتى أنتزع نفسي من برودة الخمول والجمود لأستجيب دعوة الحياة حين أكون بين ذراعى زوجي فكنت أخفق ، وقلما كنت أستطيع ذلك إلا بجهد انفعالي كنت أغلب فيه الوهم على الحقيقة وأجعل من رفيق صباى صورة تتجسم فأتمثلها في زوجي المسكين ، وكثيرا ما كان يغلبنى البكاء والنشيج .

ترى لو اخشوشن زوجي وتجانى ، وصلب واستقوى ، أعندها كنت أئين وأنصاع فترضى خليقتى النسوية الضعيفة ، أم ترانى أثور لسكرامتى فأنوثب للخصام وأنحفز للشرا لآنى ألفت التذليل ، أم ترانى أستنم للارادة القوية الجبارة فترضى نخبزتى الفطرية فى الاستنامة لقوة الرجل الآمرة ؟؟؟

فى كلا الرجلين ، زوجى ورفيق صباى ، ذخيرة غنية من سعادة الحياة تكتمل الأكمال المطلق إذا انصبت فى جوارحى ولكن ...

أف من « لكن » هذه ، بل ألف أف لقوانين المجتمع ، وشرائع الإنسان ونواميسه وسننه وتقاليده ، لم لا نساير الطبيعة في سننها البسيطة ؟ لم لا ننحرف عن سلوك طرائق افتعلتها أنانية الإنسان وأثرته ، والإنسان الآن أكثر وعياً من الطبيعة وأوفر إدراكاً للذائد الحياة ؟ ! !

أمثل نفسي ، يا صديقتي ، وأنا على هذا الحال من التلق المومج والاضطراب المظني بإناء مليء فوق مستوقد تعجّ فيه النار تغلي فيه المياه وتغور ، ولست أدري متى تتبخر وتنشف ، ولا كيف ينفجر الإناء فتطفئ المياه العالية النيران المتوقدة ! ! !

اعذريني يا صديقتي إذا بحث لك بهذا السر الذي لم أخط نحوه خطوة واحدة ، وإني لجزعة حتماً خائفة من فقدان عرش سعادة أنا ربتة العليا ، لأستبدله عن طياشة ورعن بدرك في شقاء أكون فيه ذليلة مهينة وقد لا أكون شيئاً أبداً .

أنقذيني يا صديقتي العزيرة من سقوط ليس الموت أهون منه إذا زلت خطاي ، أنقذيني قبل أن يستشعر زوجي أورفيق صباي فالبدار
البدار

السكينة

أنبيسة

— ٦ —

لم تسعفني قواي الخائرة ، وجسدي المريض ، ونفسي الخريعة التائلة الصبر ، وذهني المشتت على قراءة كتابك يا صديقتي الوفية ، وقد وصاني من نحوه شبر أو يزيد قليلاً ، ولم يطمئن ضميري إلى إعطائه لوجود لفضته

ويتلو سطره على ، بل استسلمت للراحة المطلقة أجمع أعصابي المتخاذلة من حالة الاضطراب تلك التي وصفت لك البعض القليل من أعراضها في كتابي السابق ، وللاستجمام الهادئ أهد فيه للطبيبة المدبرة تهيئة مهدها ، ويخلق بي الآن السكوت عن كل ما جاء في كتابك من تنبيه إلى أمور كنت غافلة عنها لأصف لك فعل العاصفة بي وقد ألفتني في تيه الصحراء السحيق ، تكنتني الرمال وقد غصت في دهاسها وأسفتها الرياح في وجهي . لم يضق بيتي بي بل أنا ضقت به ، ولكني أحكت إقفال أبوابه النافذة في وجهي ، وأخرست لساني لئلا تبدر منه برغمي كلمة واحدة لا يمتثل وجداني محاسبة ضميري عليها ، لقد صدمت والدتي المسكينة أشد الصدمات وأقساها حين كانت تلح في استشارة طبيب أو تتودد في السؤال والاستفسار عن حالي ، ولم أتورع عن إظهار التأفف من حماي الطبية القلب عند ما كانت تعزو ما بي اعتبارا إلى ما كانت تسميه « مقدمات » تبشر بالخير ، وقد اجترأت فأدخلت الحزن على نفس زوجي الطبيب لسبب تافه وقد ردعته عن الاستنجاد بالطبيب لأني لا أعرف إذا كنت مريضة حقا أو غير مريضة ، وصرخت : أنا الشقية ، في وجهه لهمة همسها في أذني وقد التفت إليها بانتباه بعد حين !! ؟ !

كنت أعزو ، في بادئ البدء ، ما بي إلى تلك الاضطرابات التي انتابتني عقب انهاء ذلك العامل المسكين الشاحب الوجه ، الهزيل الجسم في الطريق ، وإلى اليقظة اللبيدة التي نشبت كالأفعى تنهشني بأنياب الشهوة ، وإلى السأم من حالة رتيبة متتالية متتابعة في نعم واحد كنت

فريستها أكثر من عامين سمعت فيها تمنيات كثيرة ورغبات شديدة تنبعث تارة من زوجي وتارة أخرى من حماتي وأمي ، ولكم سمعت أمثال هذه التمنيات والدعوات من الأهل والأقارب والمعارف ، وكلها كانت تجارفي وجهي بأني في حاجة ملحة إلى تطور يؤكد وجود الحياة ببقائها وتساها وما تليهما من مشوقات مغريات في الحياة الزوجية ، ولكن أفي استطاعتي أن أكون غير متمنية ما يتمنون أو غير راغبة فيما يرغبون ويشتهون؟ وهناك أسباب كثيرة يطول تعدادها لو ذكرتها بالتفصيل ، ولكن كتابك وسكوتي عن قراءته طوال هاتيك الأيام ، وما جاء فيه من بيانات وإيضاحات خبيثة لا يسطرها سوى قلم خبيث في أصابعك ، نهني إلى يوم أعرفه وأشعر به قبل خمسة أيام من إقباله في كل شهر فانتبهت إلى أنه أقبل وانصرف متسللا ثم انقضى شهران على انصرافه ، وأن ما بي من حالات طارئة بعضها الغشيان والقيء والهواع ، وبعضها الآخر الدوار والتخاذل والاحساس بالنعاس الثقيل على الجفون انما هي المقدمات السعيدة التي تنبأت بها حماتي الطيبة القلب ، وأن ما أحس به إن هو إلا الحدث المرتقب فيانفرحتي وسعادتي ، ولكن آه يا صديقتي العزيزة من شرور الانسان وآه من شرور المرأة وهي وليدة أفكارها وصنيعة بطالتها وفراغها و بطرها .

بودي أن أقول لك يا صديقتي العزيزة أن ليس أحسن الأزواج هو الزوج الذي يلبي كل رغبات زوجه ويرضى غرائزها فحسب ، بل هو الذي يعمل في بيته عن وعي أو عن سليقة بديهية على إدخال ألوان جديدة وأشكال متنوعة على حياة زوجته ، وقد يستوى عند كل زوجة أن يكون

التنويح قبيحا أو جميلا ، حلوا أو مرأ ، خشنا أو ناعما ، بشرط أن لا يمس زهوها ، أما الآن فيا صديقتي العزيزة فقد نسيت كل شيء ، كل شيء نسيت ، ولا أريد العودة إليه ألبتة ، قد أنسى أن أعتذر إلى حماتي الطيبة القلب وإلى والدتي الحنونة وقد تنكرت لهما ، ولسكنى لن أتوان عن همس كلمة واحدة في أذن زوجي الحبيب ، وقد همستها أمس في أذنه لأنصرف بعدها لا إلى حلم لذيذ ، بل إلى تفكير عميق في حياة الجنين وقد استقر في أحشائي .

« السعيدة »

أُنيصة

الفنبرى

obeykandl.com

نصوت ثيابي على عجل وألقيت بنفسي في النيل الأحمق ذلك المخلوق التعس وقد رأيتته يفضس في الماء ويطفو على الباب كما رأيتته يصارع التيار. ولقد قبضت على ذراعه وأخذت أجره إلى الشاطئ وقد كان في حالة الإغماء ، ولما بلغت اليابسة كان التعس قد ابتلع مقدارا وافرا من الماء فأخذت أعالجه بالوسائل التي كنت تعلمتها وقتما تطوعت في خدمة جمعية الاسعاف وقد نجحت في إفراغها من جوفه ورد تنفسه إليه .

حملتنا سيارة إلى بيتي وهو قريب من النهر ، وقد دهش (محمد) بواب العارة إذ رأى أساعد رجلا ذاهلا في ثياب مباللة على النزول والسير به متمكئا على ذراعي ، وما عثم البواب وقد تبين ملامح الرجل أن صرخ سيدي صلاح ؟ سلامتك يا سيدي ، وأقبل يسنده معي .

لم أر رجلا أسود البشرة يلون الاضطراب وجهه قبل ذلك اليوم ، ولم أعهد نشاطا (بمحمد) البواب أو بأمثاله من أبناء جنسه البرابرة والخلاسيين الكسالى وقد رضوا الجاوس عند أبواب المنازل ليل نهار لا يرمون ، رأيتته ينزع الثياب المبللة عن جسم سيده صلاح بخفة وهمة ، ويلبسه سواها من ملابسى ، ويوسده فراشى . ورأيتته يضيف إلى فنجان الشاي قدرا وافرا من الكونياك ، لا أدري كيف عرف مكانه في البيت ، وأعطاه سيده وقد ألح عليه أن يتجرعه ، وما زال به حتى سقاه الشاي الممزوج .

كان القدر من الكونياك الذي شربه صلاح كافيًا لتخديره ، فما

لبثت قواه أن تراخت وقد صارعت الموت بحكم حب البقاء وراح يغط في نوم عميق .

قال : محمد - أيسمح سيدي باستدعاء زوجة صلاح أفندي فاني أعرف البيت الذي تقيم فيه وقد كنت بوابا له قبل مجيئي إلى هنا .

قلت وقد أحكمت دثار الراقد : من يكون سيدك صلاح هذا ؟

قال : - عرفته كاتبها في متجر كبير، وهو حسن السمعة، هادي الطبع ،

قلّ ما كنت أراه يخالط الجيران أو يفتح باب داره للزائرين ، وعرفت فوق ذلك أنه ميسور الحال لا يطالبه خباز أو قصاب بدين ، وقد كان ينقذني أجر البيت في اليوم الأول من كل شهر .

قلت : - خل عنك استدعاء زوجته الآن ولنذعه يسترد قواه الخائفة .

نهض صلاح من الفراش بعد نومة طويلة عميقة وأخذ يتمطى ويفرك

عينيه ويحجبل بصره في غرفة لا يعرفها ، وفي أناث لم يالف رؤيته من قبل .

لم أتركه في حيرته بل دفعت الباب ودخلت أحبيه وأسأله عن راحته

فابتدرني بالسؤال :

— من أنت ياسيدي ، وأين أكون أنا ؟

— أنت في بيتي يا صلاح بك وأرجو أن يكون النوم قد أعاد إليك

الراحة .

قال وكأنه قد انتبه من غفلة — صحيح . . صحيح . . لقد كنت متعبا

جدا ، وقد نمت طويلا . . . ولكن . . . ولكني أين كنت . . . وما الذي

جاء بي إلى هنا ... وأنت من تكون؟ ورأيت عينيه تجحوظان كأنهما
تمعان في الرؤية .

فتحت النافذة المطلة على النيل وقد كانت الشمس شارفت على الغروب
وبدت تجعدات المياه وتقلباتها كأنها خرزات ملونة بكل لون ، أو عقيق
تتكسر عليه أضواء الشمس ، ودخل النسيم يحمل شذى الأشجار من ضفة
النيل الثانية .

التفت صلاح إلى النهر ثم نظر إلى وقال : أنت الذي أنقذتني من
الغرق ياسيدي ، أليس كذلك؟ هو أنت ولا شك الذي أعدتني إلى حياة
كنت أحسب أني خلصت منها ونجوت من متاعبها وتبعاتها ، غفر الله لك
وأخذ يبكي .

تركته يزرف الدمع يفسل به هموما تراكت في صدره ويفرج
كربه ، لقد أخذ المسكين رأسه بين كفيه وانخرط في البكاء وقد بكى طويلاً ...
دخل الخادم يحمل طبقاً من المرق ساخناً ، وقد فاحت رائحته وتصاعد
دخانها .

قلت لصلاح أن يكف عن البكاء بهدأ أن أحنفت خطته وأضع
غرضه ، وأن يقبل على الطعام الذي لا بد منه ليكون إقباله من جديد على
الكفاح في الحياة أقوى وأجدي ، وأردفت الكلام بلهجة توكيدية
حازمة : سيصبح شعورك بالحياة دقيقاً ، ورغبتك في السلطان عليها قوية
شاملة .

نظر إلى ثم أقبل على المرق يحتسيه وهو صامت خافض الرأس ، وقد

أكل بشرية من كل ما تقدم له من طعام ، وغب ثلاث كوبات من
النبيذ المعتق ما عتمت أن نفعخت فيه روحا جديدا يتوثب وقال :

لقد أنقذتني من موت رغبت فيه ، فصار لزاما عليك مؤازرتي وشد
عضدي لأسير غير متسكع ولا متسكى في طريق الحياة .
قلت : سأكون عند حسن ظنك بي .

قال : لا تؤاخذني ياسيدي وقد خاطبتك بلهجة الالزام ، إذ قد يكون
حالك كحالي اليوم ، وقد يكون كحالي بالأمس عندما كنت أتمتع بنعمة
القناعة بوظيفة كتابية ألفتها ومرنت رتابتها براتب كان يكفيني ويقيني
ركوب الأخطار والمغامرات التجارية .

قلت : — إني أملك من نعمة الله وخيراته ما يكفي لأن أمدد اليك
يد المؤازرة بقرض حسن أقرضك إياه تستعين به على كسب رزقك .
قال : حسن ما وعدت به وإني سأمضي من نوى ...

قلت : لم العجلة يا صاحبي ؟ تمهل فأنت ضيفي ، ولن أتركك تبرح
داري حتى أضع معك خطة لملك الجديد تكون النهج القويم لحياتك
الجديدة .

قال : خطتي الجديدة هي العودة إلى عملي ، أبتدى حيث ظننت أني
انتهيت ، أما الآن فيخلق أن تعلم مني بواعث طابى الانتحار .

وقال : — كنت أعمل ياسيدي كاتباً في متجر يملكه تاجر لم أر له نظيراً
في اعتصار قوى عماله ، ولا من هو أقدر منه على استغلالهم بالعمل المتواصل
ولا يمكن أن يوجد من يجاريه في سوء معاملة العاملين عنده ، وفي سلاطة

لسانه وإطالته في شتمهم ، وقد كان في الوقت نفسه أحسن الناس معاملةً لعملائه وقصّاد متجره ، وأوفرهم أدباً وأحلام لساناً في استقبالهم وتوديعهم ، أما تصرف ذلك التاجر معي فقد كان يختلف عن تصرفه العنيف مع بقية عمال محله وكتابه ، والسبب الذي كان يحمله على الانحراف عن جانب طبيعه إلى جانب طبيعه أني كنت موكلاً بضبط حسابات عملاء المتجر ومحاسبتهم مما كان يدعوني إلى التبسط في الكلام معه وإلى إبداء الرأي في حل مشكلات تقع دائماً بين التاجر المقرض والعميل المقرض ، ولكنه ما كان يتوانى عن لومي وتعنيفي عندما نكون منفردين ، أو كلما شام مني تساهلاً مع عملاء المحل أو تسامحاً في تأجيل دفع الأقساط الشهرية أو نزولاً عن فوائدهم مرّجة .

كان ذلك التاجر ، وقد قبض الله روحه ، حديث الناس في مجالسهم وأسطورته الخرافية التي تابس ألف ثوب خلاف ثوبها الأصيل ، تدور على السنة فتيات يعدهن بلقاء العريس ، وشباب يفرهن بالحسان ، ورجال يستدلهم ببيع ما يحتاجون إليه من متجره بالتقسيط ، وسيدات محتشات يراودهن فيتنازل لهن عن جزء مما له عليهن من دين متأخر الوفاء ، ولكني ما سمعت فيما سمعت من نوادر هذه الأسطورة الخرافية التي كان يشترك كل الناس في اختلاقها وتأليفها ، ما هو أدهى من حكايات كان يختلقها عامل من عمال ذلك المتجر ، ويتفنن في إلباسها ثوب الحقيقة مذوقاً مزركشاً ، ولم يكن له عمل في المتجر سوى تلفيق هاتيك الحكايات وترويجها بين العمال ثم إذاعتها على العملاء من فتيات وعجائز .

لزمت عملي هذا زهاء عشرين سنة عند ذلك التاجر الذي لم ينفك يوماً واحداً عن لومي وتمنيفي سرّاً ، والأشادة جهراً بأصالة رأيي ومقدرتي على مداورة المشكلات وتصريفها في أقوم السبل وأضمنها ، إلى أن وقعت الواقعة غير المنتظرة ، وحلت النكبة التي لا حيلة لي في درئها ، ولا القدرة على دفعها ، وذلك أن ابن ذلك التاجر قد أراد لوالده الذي تقدمت به السن الراحة وكف اليد عن العمل .

لم تكن طرائقي ترضى ذلك الشاب الفرّ الذي شب فلقني سبل حياته مهادة مرتبة أحسن ترتيب ، وموارد خيرات أبيه منظمة أحسن تنظيم ، لم تكن طرائقي المرنة اللينة في مسايرة عملاء المحل لترضيه لأنه كان يأنف التعامل مع من يحميدون قيد شعرة عن طريق التمسك بالقول الصدق ، وعمن يخلفون الوعد ، وأخذ يرغمني على إقامة القضايا على كل متأخر عن الوفاء ، ووقف حساب كل من يتلكأ في دفع القسط الشهري ، وإيقاع الحجز التحفظي على محتويات مسكن كل عميل لا يدفع ما عليه ، ولما أبدت إنكارى من تصرفات هذا الشاب الذي حول مكتب التعامل الحسن في متجر أبيه إلى مكتب قضايا ودعاوى ، طردني من عملي ولم يشفع لي عنده رجاء أبيه الهرم الخريف .

لم أحزن على ضياع عملي في ذلك المتجر الذي أفتته وقد غدا قطعة من وجودي ولازمة من لوازم حياتي ، بل أحسست في داخلي عزيمة توثبت وحيوية دفاعة إلى العمل الحر .

أى عمل حر أعالجه وقد سرنت وضع الأرقام العددية في مواضعها ؟

كيف أنخاطب الناس وقد تعودت التحايل مرة ، وتهديد العملاء مرة أخرى للحصول على جزء مما عليهم من دين ؟ أى عمل من الأعمال الحرة يساوى أو يضارع عملي المفقود وقد مارسته شطراً من حياة الشباب ؟

سمعت هاتفا داخليا يدعوني إلى الإقدام على أى عمل كان ، وشعرت بدافع يدفعني إلى تحريك خطواتي إلى الأمام ، ولكن أين الأمام ذلك ؟ وكيف الاتجاه إليه ؟

ضمنت المبلغ الزهيد الذي قبضته ثمنا لطردي من عملي إلى المبلغ الضئيل الذي ادخرته ليوم الكريمة ، فاذا بمحصل المجموعتين قد ينفد بعد شهر أو بعد عام واحد في حياة التفتير لو قعدت عن العمل .

أخذت أعصر يافوخي وأمتحن عناصر حيوياتي المدخرة أتلس ميولها وأتعرف ما ترغب فيه أو تعرض عنه من الأعمال .

أوحت إلى تلك الحيوية الملعونة أن أخوض معترك الجهاد الوطني حيث السبيل سهل منبسط الراغبين في الكسب بدون عناء ، ولكن نفسي أبت على أن أظهر مظهر البطل الوطني الجاهد ، في حين أمد يدي أقبض الأجر من أعداء الوطن أو تجار الأحزاب .

ما أشد ما كانت تتقارب أوجه الشبه بيني وبين إناء فوق مستوي قد تبخر المياه فيه وقد تنطفيء النار قبل أن ينضج منافي الأناء وليس فيه سوى الماء .

هكذا كان حالي ياسيدي عقب طردى من عملي في الاضطراب وعدم الاستقرار ، ولكنى كنت أحسن بالأمل يبتسم في وجهي ، وبالعزيزية تدفعني إلى العمل ، وبالحيوية تقولها أنا ذى ..

جاء شقيق زوجتي لزيارتنا فلتقيني غارقاً في تفكيرى كما وجد أخته
في همٍّ ووجومٍ .

قلت : من يكون شقيق زوجتك ذلك ؟

ذكر لى اسم نسيبه وقد كنت أعرفه مفراحاً ممزاجاً ظريف العشرة
سخي الكف مسرافاً ، يأخذ ما في جيوب قومٍ ليعطيه آخرين .
فقلت : أذلك الماجن قريبك ؟

أجل ياسيدى ، وإنه ما كاد يدخل بيتنا ويعرف خبر ما حل بى من
فقدان عملى حتى أقبل يضحكنى هازئاً بالوظيفة ساخرأً ممن يؤجرون
ذواتهم للعمل ، وقد مثاهم بالدابة التى تربط على الساقية وكل حظها من
الحياة هو العلف فقط ، وما زال بى ينفرنى من حياة المستخدمين ويرغبنى
فى العمل الحر . وأخيراً عرض على أن أعمل بالاشتراك معه فى شراء صفقات
من السلع وبيعها فى السوق ، وقال إن فى إنجاز صفقة واحدة فى الشهر الواحد
ربحاً يماثل الراتب المحدود لعدة شهور ويضمن الطمأنينة للعمل بتدبر وتمقل
وحكمة . واستطرد يقول : من الخير أن نبدأ عملنا فى حيز ضيق يستغرق
اليسير مما ندخر من المال ، وأن نتوسع فى العمل كلما استدعت
الظروف واستوجب الحال .

ارتاحت نفسى لهذه المقدمة التى لا عيب فيها سوى مجانة بادية
واستهتار ظاهر فى قول قائلها . ولما كنت مفطوراً على الرزانة والجد قلت
أسأل قريبى أن يكف عن المزاح ، وسرعان ما تحول فى لحظة واحدة وقد
أقسم على أنه مجرد فيما يقول .

قلت وقد قضايت استطراده في الحديث أسأله : ما هو مقدار معرفتك بقريبك وكيف كانت صامتك به ؟

— عرفته ياسيدي في نادي الأمامب الرياضية وقد كان ذلك قبل عشرين عاما، وقد استرعى حديثه انتباهي فأحببت فيه الظرف وخفة الروح وحمدة الذكاء وكياسة جذابة وسخاء ملموحا ، فما لبثنا أن تصادقنا ثم عرفت أخته فبنيت بها .

كانت صداقتي له خلال هاتيك الأعوام الطوال على أحسن ما يقدر الفضلاء معاني الصداقة والقراية ، وكان بيتي كأنه بيت له ولزوجته وأولاده في حين عقلت زوجتي ولم تنسل قط ولذلك لم أبرم به ولا بأولاده .

اتخذ نسبي لحياته فلسفة خاصة عمادها الاستهتار والمجانة والاستهانة ، لا يأبه لشيء مهما جل أو اتضع ، ولا يلتفت إلى الناس مهما اتقاهم أو نزل بهم من الأمور .

كان يملك قريبي عشرات أضعاف ما أملك ، ويربح في الشهر الواحد ما يبادل ربحي طوال عام كامل ، غير أنه مسرف متلاف ، تباريه زوجته الغنية في التبذير والسفاهة ويشقى الأولاد بأبهم وأههم .

كان يسوء حاله في المضاربات فيعجز عن شراء علبة سجائر ، ولا يأنف من مدّ يده يطلب مني خمسة قروش ثمنا للفائف التبغ ، وحين تقبل الدنيا عليه يمتني خمس سيارات بدلًا من سيارة واحدة ، وكان في حائتي الإدبار والإقبال ، يتقلب في طبيعة الذل والاستخذاء الضاحكة ، والجزوت والفتوسة الساخرة .

كنت أنا وزوجتي نرثي لحالة ونتوجه لآل أولاده ، ونفتح له ولأسرته بيتنا في حالة إعساره ، أما هو فكان يتجاهل وجودنا أيام إيساره .
 قات : فأنعمد إلى حديث التجارة .

قال : — إي والله ! لقد كاد الاستطراد في الكلام وتيسيرك لي سبيل الاعتراف ، وهي وسيلة للترفيه عن النفس ، يقصيانني عن صميم الموضوع الذي حفزني إلى اختزال طريق الحياة والحرب من نكبة أوقعتني قريبي بها .

قات لك ياسيدي إن مقدمات العمل التي بسطها نسبي قد استهوانى عرضها ، وتماسكنى المشروع فأقبلت عليه ، فأخذنا نعمل ونربح ، والأرباح تنشط الذهن وتشجذ الهمة .

آنس نسبي في الاجتهاد والاقبال على العمل ، فارتأى أن يتركني أعمل وحدي لينفرد هو إلى مضارباته ومشاريعه الكبيرة التي تتناسب مع أطباعه . رضيت بما ارتأى وفي نفسي طمع ورغبة في الانفراد بالمكاسب وحدي . ليس في الذات ياسيدي ما يضارع إشباع أطباع النفس ودغدغة الأنانية ، وكذلك كانت رغبتى في استبقاء صلة الشركة مع نسبي قائمة على تزويد أنايتي من معارفه المكتسبة بالتجربة .

أخذت أعمل وحدي بحرص وخوف ، أحسب للأمر ألف حساب ، وأفرض له أسوأ الفروض لأتداركها قبل وقوعها ، غير أن حرصى ومخاوفى كانت مصوبة إلى من كنت أتعامل معهم من التجار ، ولم يخطر لي على بال قط أن البلية ستنتابني من الناحية الأمانة .

ما قطعت في أمر قبل مشاورة نسبي فيه ، وما عقدت صفقة لم
أسترضده فيها . كنت أحوم حوله كفرنخ الدجاج ، وكان يظلالني بجناح من
النصيحة والرشاد .

زين لي مرة عقد صفقة ضخمة رابحة ، وما زال بي يقنعني تارة ، ويحجب
إلى الإقدام والجرأة تارة أخرى حتى استلمت ، فأقدمت والجزع يهددني
والاضطراب يساورني ، ولم يرتح بالي وتسكن هواجسي إلا بعد أن بهت
الصفقة التي لم أكن أملك ربع ثمنها وقد رضيت بالمكسب الضئيل لا عن
قناعة بل عن خوف .

تؤخذ السمكة بالطعم ياسيدي ، وهكذا اصطادني نسبي بطعم أخفى
صنارته بحذق وقد علقت بحلقي فكادت توردي مورد الملاك . عقد معي
صفقة قبض ثمنها نقداً وعدا ، وقد بعثها لتاجر وقبضت منه ثمنها . والاطالبت
نسبي بتسليمي ما باعه لي أخذ بماطل ويسوف ، ويتحایل ويتهرب .

وقفت أتوسل إليه أن يعطيني ما باعني أو يردّ المال الذي قبضته ، فأخذ
يكافني بأنفة وخطاسة أثارت أعصابي فكادت أنزع نزعة الشر ، ولكنني
كطامت ما بي وعدت أتضرع إليه أن ينقذني من ورطتي . قال لي وهو
يتسم ابتسامة لا أدرى كيف اصطنعها « سوف وماطل وتحایل وتهرب
مثلي من عميلك » .

قلت : « التجارة ثقة وشرف وأمانة يجب التمسك بها والمحافظة عليها » .

قال : « هذه نظريات جوفاء يقول بها نظريون بلهاء أمثالك » .

قلت : « لا شأن لي بالأمر النظرية بل يجب أن أكون عمليا »
وهددته بقبضة يدي .

استجار بالناس وألبهم عليّ ، ولم تنصفني الشرطة منه بل صرفتنا برفق
وملاطفة على غير طبيعتها داعية إياي إلى مقاضاة خصمي في المحكمة
المدنية .

كيف تنصفني المحكمة المدنية من متلاعب ما كر لا أملك سنداً ولا
دليلاً يثبت حقي عليه ؟ هل يسمع لي القاضي إذا قلت إن المتلاعب الما كر
هو نسبي ؟ أولا يضحك القاضي من سلامة طويتي لتعامل مع القريب بغير
حرص وحذر ؟ ثم بماذا أَدافع عن نفسي أمام القاضي وقد بعت ساعة
وقبضت الثمن وتهدت بالتسليم ولم أف بالعهد ؟ يقال إن المحاكم المختلطة
ياسيدي سلطاناً عاتياً عتو الشهوة ، ولقضاتها أفواها بصق فيها الشيطان
فصارت إذا هي حكمت فانما تحكم بالانتقام الذريع من الجاني وبما هو
فوق العدل المجنى عليه . فإذا صح ما يقوله الناس عن هذه المحاكم ووقفت
أستمع إلى القاضي يحكم على بتسليم البضاعة التي بعثها أو رد الثمن الذي
قبضته مضافاً إليه مبلغ يتكافأ مع ما اصطاح على تسميته « بالعتل والضرر »
وأيضاً رسوم القضية ، وأتعاب المحاماة ، أفلا تكون هي النازلة التي ستلازمني
حتى الوفاء ! وإذا تعذر على الوفاء في حياتي فإنها تلاحق أولادي فيما يرثونه
بعد موتي .

عدت أطرق باب نسبي ، فصدتني زوجته وطرذني أولاده كأنني مستجد
ملحاح . استنجدت بالأهل والأقرباء أطلب وساطتهم عند نسبي ، فلم تجدني

وساطتهم بشيء . احتارت المسكينة زوجتي بين زوجها المغدور وأخيها
الفادر لوقوعها بين مطرقة الزوج وسندان الأخ .

أقبل محضر المحكمة المختلطة يرافقه شرطى ووقع الحجز على متجري
وهم أن يغلق بابه وختمه بالشمع ، وكاد يفعل لو لم ينبهني أحد جيراني إلى
وجوب إرضاء المحضر حتى يسكت عن تعطيل عملي في تجارتي ففعلت وأنا
مستحي من نفسي !!

أسرعت في الذهاب إلى التاجر الشاري أرد إليه ما قبضته منه ثمنًا
للبضاعة التي اشتراها فأبى إلا قبض المبلغ مضافا إليه ما يساوي الضرر الذي
لحق به من جراء عجزى عن التسليم . وقد رضى على مضمض بعد توسل
واستعطاف أن يأخذ ماله .

ياللداهية التي دهنتي !!... ياللكبة التي نكبتني !! .. يا لجنون اعتراني
حين مددت يدي إلى جيبى فلم أجد فيها حافظة النقود وقد ساط على القدر
الأعمى نشالا بارعا انتهز سهومي واضطرابي فنشأها دون أن أنتبه أو أعمى .
ذهلت هنيهة ثم أخذت أدور حول نفسي ، أدس يدي في جيبوني ،
أتحسس صدرى ، أين المال ! أريد ردّ المال إلى صاحبه ، وصرت أهدى
كالحموم وأتلفت كالمئات الممرور .

ضحك التاجر منى وسخر من تمثيلي الاحتيال والنصب تمثيلا واقعيا ،
فدفعني خارج متجره لاعناء الساعة التي تدنس بها التجارة بنصابين
محتالين أمثالي .

باللهول من الذل ! باللهول وقد توهمت أن العناية الالهية تخلت عني
وأن الله صب غضبه عليّ انتقاماً مني للمشترات من أوقمت الحجز علي
مقتنياتهم بغير مريحة أو مبالاة حينما كنت كاتباً عاملاً في المتجر الذي
طردت منه .

لم يبق ياسيدي ثمة مناص للهروب من النفس الحائرة الذليلة . لم يعد
أمامي سوى ولوج باب الخلاص من البلبال والتقاق والاضطراب والوجل
والذل . لم يبق إلا أن أختزل طريق الحياة! فعمدت إلى النيل رب البركات
والخيرات أكرع منه كؤوس الموت في نخب الإخفاق في الحياة .



انقضت ست سنوات على ذلك الحادث لم أرفى غضونها وجه الرجل ،
ذاك الذي أدخلته داري متخاذل التوى مستنداً على ذراعى وذراع (محمد)
بواب العمارة ، وقد خرج منها منتعسب القامة ، متين الإرادة ، صليب
العزم ، تنبىء عضلات عنقه وقسمات وجهه بالتصميم على مكافحة الحياة
والانتصار عليها . ولكنى كنت أتسقط أخباره من الأوساط التجارية ،
وأراقب نجمه يتلأأ في أندية المال ، وأفرح بسماع أطيب الحديث في
استقامته وحسن معاملته الناس .

نقل لى عنه أن التجارة استغرقته ، وحب الكسب طواه ، فصار
يملك أرضاً وعقاراً ، ولا يزال مجداً في عمله يواصله باجتهاد ونجاح ، وقد
انقطع عن المجتمع وانصرف عن كل الناس .

لقد كبر ازورار هذا الرجل الغريب الأطوار عني ، فرميته بالكنود

ونكران الجميل ، وعظم على أمر هذه الانسانية التي ابتلت نفسها بشق
الأنماط من طباع بنيتها وأشتات أهزجتهم وخلاتقهم ، فانقلب على الرجل
وحقدت عليه ولكنى لم أنسه .

وحدث أنى زوجت ابنتى ودعوت إلى الاحتفال بمرانها طائفة من
نخبة أصدقائى ومعارفى ، وتصدت إعمال ذلك الناكر الجميل الذى كنت
أود انتزاعه من بالى . ولشد ما أصبت بالدهش حين رأيت بين المدعوين
يشق صفوفهم ويتقدم من ابنتى مهنئاً إياها بالزواج وقد قلدها عقداً من
الجواهر يبهر الأنظار وانثنى بهم بالخروج .

استمهيته فتمهل . . . قلت له إنه مدعوى الليلة برغم أنى لم أدعه
فقبل . . . انتهينا ناحية من المتصف نشرب ونأكل نخب العروسين . . .
رفع كأسه يشرب نخبى إذ مكنته من الانتصار على الحياة ، فرفعت كأسى
بدورى أشرب نخب من يتنكر لصانع الجميل . . . رأيت يتسم ابتسامة الواثق
المطمئن من نفسه ، الشاعر بساطانه عليها والاعتزاز بها وقال : « لست
أخشاك تكتب أو تالفق كتاباً أسود » فى تظير مساوئى ، أو تقول
فى ما قيل فى رجال « النمين » فى زمن الحرب ، أو ترمينى بمارمى به
محامو وسماصرة الحاكم العسكرية . لقد افتقرت ياسيدى فرصة فوضى
الحرب ، فعمات ما يجب على عمله للكسب والريح فأصبحت من أرباب
الحرب . ولكنى تعاليت على السنه ، وتعاضمت على العظمة الزائفة ، وألجت
السنة الناس بالانصراف عنهم ، وقبعت فى دارى أفرح بأولادى وقد

يسرت لهم سبل المستقبل ، وعودتهم بأقوم ركن من أركان الحياة وهو المال « . واستطرد بعد أن تمهل قليلا « قد يكون المال ياسيدى الصديق كل شىء فى الحياة ، ولكنه لايدانى ولن يدانى ثروة الروح . أما أنت ياسيدى فقد زودتنى يوم أنقذتنى من غرق محتوم بزادين : زاد مادى استعنت به على شق طريقى فى الحياة ، وزاد روحى انتصرت به عليها » .

پستچی
ملی

obeykandl.com

أمه بُعيد مولده بساعات ، ودُقَّ عنق أبيه إثر كبوة حصان في ميدان السباق ولما يباغ السنة الثانية من عمره . احتضنته عمته الأرملة ونشأ يتيماً في كنف خمسة أعمام عزاب لا تجتمع بينهم إلا جاءمة الأخوة وبيت يأوون إليه عقب عودتهم من أسفارهم المتواليّة .

بينما كان الواحد من أعمام ذلك اليتيم يدرّبه على نطق الحروف الأبجدية والأعداد ، كان الثاني يعلمه شتيمة عمته . وبينما كان العم الثالث يعلمه حسن السلوك ، كان عمه الرابع يستقيه المسكر خلعة لينهم برؤية طفل يترشح ويثرثر ويشتم . وهكذا كان اليتيم المسكين لمبة يتقاذفها أعمامه أصحاب الأمزجة المتباينة : أما عمته فلم تكن إلا راعية تظفل يقتل ضجر الترمال في حيويتهما المكبوتة .

كان معلم كتّاب القرية يستجير بالشیطان من غفرتة ذلك الصبي ، وكان في الوقت نفسه يتحاشاه خوفاً من أعمامه الوجهاء . أما الصبيان أنداده فقد كانوا يتباعدون عنه و ينفرون منه للدلالة المانع وسماجته وغافلته .

كبر الصبي ، فأرسله أولياء أمره إلى مدرسة داخلية في بيروت . وعند مانال شهادة البكالوريا جاء إلى عمه الخامس في معصر وهو طبيب معروف المكّانة عند كبار موظفي الحكومة وقد أوجدوا وظيفة لابن أخى صديقهم الطبيب .

كنت الصبي ، فالفني ، فالشاب الذي ماشى صاحبنا واسمه « إبراهيم

المركب» في أطوار حياته ، حتى لقد كنت ، بحكم المصادفة ، رفيقه في سفره على الباخرة التي أفلتتنا من بيروت إلى ميناء بور سعيد . ومع أننا كنا صديقين حميمين ، كنت أجد تبايناً في مزاجينا ، كان يدينني تارة منه وتارة أخرى يقصيني عنه ، ولم أكن أدري متى أو كيف يكون راضياً عني ، ولا الأسباب التي تثير غضبه علي . وقد صرفنا شطراً من صدر الشباب في المجانة والعبث ، نختصم على من سعينا إلى إغوائها ، وتتصافى متى فرغنا من أغريتنا من أنصاف النساء المحتمشات ؟ !

لم أكن في شبابي أصيلاً في مجاتي ، بل كنت أقلد صاحبي إبراهيم في عبثه ، وأجاريه في تصرفاته . وأعترف أنني كنت فاقد الإرادة معه ، وقد كان يوجهني وفق مشيئته ، فأطيعه انسياقاً مع ضعفي حياله . لقد سلك بي سلك المفاسرات التجارية ليقصيني عن الحكومة مع أنني كنت أحمل الشهادة المدرسية التي يحملها هو ، وكان يقول لي : يقضى الواجب علينا ، نحن أبناء سورية الذين اتخذنا من مصر وطناً ثانياً لنا ، أن نترك وظائف الحكومة لأبناء البلاد الأصليين لأنهم أحق بها منا ، وأنهم وإن كانوا ليسوا أقدر منا الآن على القيام بأعباء التبعات فإن الأخلاق بنا أن نفتح لهم هذا المجال الشائك ليجتازوا عقبات الاستخذاء والاستسلام للأجنبي الأمر ، فهم لا بد واصلون إلى الاعتماد على أنفسهم ولو بعد حين .

كان ينكر عليّ ادعائي بأنني تمصرت ويقول : إن نظرية « تعصب الدخيل » ما هي إلا عبارة جوفاء ألفنا سماعها من الأقدمين ليستغل بها

الجاهلون ممن يأخذون الأقوال المأثورة على علاقتها كأنها منزلة من عوالم التقديس ، بيد أن الحقيقة تنفي عقيدة الشرك بالوطن !!

ويقول إنه يحب مصر حبا صحيباً ، ويجب أهلها لطيفة في قلوبهم تجعل استغلالهم من أيسر الأمور وأبسطها . ولكن الضمير يقضى بأن ننزع عن بلادهم أو نمتزج بهم ، حتى لا نتخذ نواة تسند صخرة من صخور المستعمرين والمستغلين من الأجانب ، أو عقبة تحول دون تقدم شعب أخذ أفراده يشعرون بالواجب نحو وطنهم ويرفعون عقائرهم يطالبون بحقوقهم في الحياة .

وكان يقول : إنه سيمترك مصر فيهاجر إلى العالم الجديد ، وسيعمل هناك مثل ما عمل أبناء سورية الذين سبقوه إليها وشق كل منهم طريقه في حياة العمل والاجتهاد والمغامرة .

كان إلى جانب هذا الشعور السامى فى صاحبه إبراهيم المراكب ميل شديد إلى المرأة ، لا يطمئن إلى واحدة من بنات حواء ، ما يكاد يصل واحدة حتى ينبذها ويشيعها بلعنات خالديات !! ينكر الزوجية إنكاراً شنيعاً مشفوعاً بأقذع الشتائم . كنت لا أنذك أرميه بالفسوق والفجور أيضاً ، وأعجب له كيف تلتقى فيه نبالة الخلق والندس الاجتماعى !! كان يهزأ بي ويسخر من مساءلتى ومن انسياقى فى المثاليات الخلقية التى تتحرك بها السنة الضعفاء والمقعدين والعاجزين من الشيوخ والكاذبين من كتاب الروايات والشعر ، وهكذا كان جدانا لا ينتهى .

قال لى مرة : يجمل أن تقضى معا إجازة الصيف فى رأس البر .

وسرعان ما غير رأيه وارتأى الذهاب إلى جزيرة قبرس حيث يكثُر هناك العنب والفواكهة، ثم عاد فارتأى أن نذهب إلى رودس جزيرة الورد والمياه المعدنية . وأخيراً أركبني باخرة ألتق مراسيها في بيروت .

لم نأو منذ وصلنا لبنان إلى فندق واحد في ليلتين متواليتين ، ولم نستقر في ضيعة واحدة أسبوعاً كاملاً ، بل كانت العربات والدواب تنقلنا تارة إلى الشمال وتارة أخرى إلى الجنوب ، مرة إلى مدينة دمشق ، ومرة إلى حلب ، كأننا جئنا نمسح بلاد سورية وجبال لبنان وأوديته نحصى عدد قراد وسكانها وكنائسه وأديرتة .

تمت من الانتقال من بلد إلى قرية ومن قطار إلى سيارة ، وضمت بهذا الصديق الجوال . وكأني به لمح في ضجراً يندر بالانفجار ، فأراد أن يعنفي منه ، فاقترادني إلى بعلبك وتركني في تلك القرية القابعة في أرض سهل تصفر فيها الرياح في الصيف وتغني شياطين الوحدة فيها أنغاماً رتيبة وتضل عقاريت الفكر والخيال في قلعتهما الخربة ، وذهب إلى حيث لا أدرى وتركني قعيداً كالمشلول أنتظر أو بته .

انصرم حبل الإجازة بشهورها الثلاثة ، وأزف موعد العودة إلى مصر . ولكن أين صاحبي إبراهيم ؟ كيف أعود إلى مصر وحدي ؟ شددت رحالي أي حقائي إلى بيروت . وما كاد القطار الساحفاني يقف في المحطة حتى لقيت صديقي في انتظاري على الرصيف . ولم يمهني الشقي حتى أعاتبه على تركه إياي طوال هاتيك الأيام في فندق بعلبك وكأنه معصية للرضي الناقهين ، بل قال لي إنه احتجز لي مكاناً في الباخرة المقاعة ظهر اليوم التالي .

وإن ليلة جهراء شائقة تنتظرني الليلة... شعرت بنسيان الماضي وألم الوحدة في بعلبك، وفرحت بلقاء صديقي وبليلة جهراء دامية نقضها في بيروت.

لم ألمح في صديقي إبراهيم منذ عرفته فرحاً وسروراً وبهجة كالذي رأيته في نفسه المفرح وهو على ظهر الباخرة العائدة بنا إلى الاسكندرية. كان يتسم لكل شيء، ويفرح بالأشياء كأنها أشخاص لها عقول وأرواح وأجساد، وكان يشارك في فرحه من يعرف ومن لا يعرف من الركب حتى الخدم كان يمازحهم بروح من البساطة والمرح.

حمدت هذا الانقلاب العجيب فيه ولكني لم أتبين أسبابه، ولا حاولت تماس بواعثه؛ ولم يحفزني الفضول وحب الاستطلاع إلى سؤاله أو استدراجه للتحدث إلى عن طوية نفسه وعما يفرحه، ولكن سكرتي كان حافزاً إياه إلى سؤال السؤال الغريب التالي:

ما هو نوع الهدية التي تقدمها إلى عروسي إذا تزوجت؟
أجبتته على الفور ولم أكن أعهد في نفسي ما كان مني البداة وسرعة الخاطر: « سأقدم لعروسك يا صديقي العزيز كفنًا من الحرير بلون الزهر وإكليلا من الشوك وقصبية مرضوضة ».

ضحك من جوابي ضحكة عالية وقال: أإلى هذا الحد سأكون زوجاً غير صالح حتى ترى أن زوجتي مسوقة إلى الموت؟

قلت: أستغفر الله يا صديقي! إنك مثال الفضائل المثلى والأخلاق السامية! وكيف لا تكون من الفضلاء وأنت لا تقرب الفتيات الثيبات لأنهن يجرن ذبول التبعات والجرائم في حين أن النساء المتزوجات وخاصة

العاقرات والأرامل وفيرات العدد، وهن أقرب مننالا وأقل تحصناً من الفتيات الطائشات!! كيف لا تكون من أفاضل الأزواج أنت الذي لا يطيق التقلب على فراش واحد لأن أسرار اللذات كما تدعى هي في تنويع الفرش!!! كيف لا تكون مثلاً أعلى للزوج الطيب وأنت ترى أن نظام الزواج من امرأة واحدة إنما هو تشريع فاسد نظمه الضعيف، أما الرجل القوى فقد أباح لنفسه ما طاب من النساء مثنى وثلاث ورباع وما ملكت الأيمان. ولعلك... ولكن صديقي الشقي استوقفني بإشارة من يده ثم أسكتني فأضاع علىّ بذلك فرصة سانحة للانتقام منه وقد تركني وحدي في بعلبك كالمشلول القعيد... لقد استرضاني وربّت على كتفي وقال إنى أعذرك يا صديقي فيما قلت؛ لأنك منذ عرفتنى لم تنظر إلا إلى الصورة المنشورة في خلائقي، أما الصورة المطوية في نفسي فلم ترها ولا أحسب أنك ستراها. ولكنى سأعدك بأنى سأكون على ما تحب بل سأكون على تقيض ما عرفته فيّ حتى اليوم.

عدنا إلى أعمالنا في القاهرة، بل عدنا إلى حيث نهوض بل نسدد ماتراكم علينا من عمل تعطل طوال مدة غيابنا. وصرت لأرى صديقي إبراهيم إلا إذا سمحت المصادفة في الطريق أوحين أكون معه على موعد. وفي ذات صباح وصلتني دعوة منه يحملها رسول خاص يدعوني بها إلى لقائه في مكان عينه لى. ولما التقينا قال إنه مسافر غداً إلى الاسكندرية وأن لا بد من أن أرافقه إليها. ولما ترددت في تلبية رغبته، قال متودداً: ألا ترافقني إلى الاسكندرية فتودعني الوداع الذي قد لا ألقاك بعده؟

قلت مازحا : أنتحارا غرقاً في سبب عاطفي ؟

قال : لا ! بل هجرة لا عودة بعدها إلى الشرق .

تبيّنت الجدل في ملامح وجهه ومن نبرات صوته . عبثاً حاولت استمدرأجه إلى الكلام لمعرفة أسباب هذه الهجرة المفجائية .

توهمت خلافاً شجر بينه وبين رؤسائه أو مرءوسيه أدى إلى ملأه من الوظيفة . وسوس لي سوء الظن أن شيطان الطمع أطغاه فدفعه إلى اختلاس ما في عهده من مال الحكومة ، كخنت علاقة غرام اضطرت ثم انطفات لسبب تافه كما يقع في الغالب لأكثر المحبين . لم أترك فرضاً من الفروض الممكنة وغير الممكنة إلا افترضته سبباً لهذا الخراب الذي حاق بحياته خصوصاً أنى قد علمت أن أسرة معروفة بالوجاهة وعلو المكانة ترغب في مصاهرته . وأخيراً قلت : لعله أصبح لا يحتمل البقاء مع عمه الدكتور الجلف الغليظ ، فأثر الهجرة على البقاء في هذا البلد الطيب مع عمه الدعوى المأفون .

نفي لي كل ما جال في خاطري من فروض دافمة إلى الهجرة ، وقال موعداً صباح الغد في محطة سكة الحديد . أما الآن فإني عائد إلى البيت أجمع حقايبى .

٤٤٤

أربعون عاماً انقضت على ذلك الموقف عند ميناء الاسكندرية ، وقد أخذت الباخرة تبتعد رويداً رويداً وصديق إبراهيم يلوح لي بمنديل تارة ويكفكف به دموعاً تنحدر من عينه تارة أخرى . أربعون عاماً لم أسمع

غضونها خبراً واحداً عن ذلك الصديق الذي أבי إلا أن يقول لي إنه استدعاني للوداع الأخير ولكنه لم يبح لي بالباعث عليه . أربعون عاماً ما أطولها في حياة الإنسان ، بل ما أقصرها ! كيف انصرفت إن في هناة أو سعادة أو شقاء وكدر ! .

في عام من أعوام الرخاء واليسر ، طاب لي الاضطياف في لبنان . ولكني ما كدت أستقر في قرية في قراه المنزلة عن أماكن الاضطياف المعروفة ، حتى سمعت هاتفاً يهتف بي يدعوني بالحاح أن أذهب إلى قرية « حاصبياً » .

حاصبياً !!! ماهذه القرية النائية الاليدة في كنف جبل أجرد ميت ؟ ما أهلها وأنا لأعرف منهم أحداً سوى ذلك الصديق إبراهيم المركب الذي أراد لنفسه الانتقال من القطر المصري وهو مليء بالحياة والسعادة يحس ساكنه بوجوده ، ليرحل إلى أمكنة مجهولة وشعوب همجية لاتصله بهم صلة ما . ولكن أين هو ؟ أترأه على قيد الحياة أو اخترمه الموت الرابض المتربص بكل مولود ؟

لبيت نداء المجهول برغضى . . . و بعد ساعات وقفت بي السيارة في ساحة قرية متواضعة كأنها الواحة بين جبال جرداء وأودية ميتة . ليس في القرية فندق أو مطعم ، وليس أمام الغريب إلا أن يطرق بيتاً لوجيه أو داراً لشيخ من مشايخ الحارات يجد فيه مأوى وطعاماً .

تذكرت بيت صديقي إبراهيم . وما كدت أذكر اسمه لمن تجتمع حول سيارتي من صبية أهل القرية وبعض رجالها ، حتى علت أصواتهم

تذكر اسم المحسن الناسك إبراهيم بك المرآب ، رجل البر بأهل قريته ، والإحسان الكريم على فقرائها، الذي عاد من أميركا منذ ثلاثة أعوام لم يره أحد من أهالي القرية خلالها سوى مرات معدودات ، حيث كان يذهب في أول كل عام إلى مركز القائمقام يدفع مبلغاً من المال يوزع بمعرفة شيوخ الطوائف الإسلامية والدرزية والنصرانية على الفقراء والمعوزين . وقال لي الرجل الذي رافقني إلى بيت صديقي : إن المنادين كانوا ينادون بالشوارع والحارات محلين هبات إبراهيم بك المرآب فيهرع المعوزون والفقراء متظاهرين مزغردين منادين بحياة الرجل الطيب إبراهيم بك .

يقع البيت في طرف القرية ، وهو قائم على تل صعب الارتفاع ، يحيط به سور من شجر ليز لصيق، يحرس بابه كاب هرآر عضاخ ، لم تقو السيدة العجوز الطاعنة في الشيخوخة التي جاءت لتري من الطارق ، على كبح قلبها العبوس أو إقصائه بعيداً عنى ، لو لم يتداركنا شيخ أبيض الشعر ما كدت أراه وأتبين ملامحه حتى ارتعيت على عنقه أقبل رفيق المدرسة وعشير الصبا الصديق إبراهيم الذي قطعت معه ستين عاماً من العمر وتزيد :

قال لي وقد جلسنا على حشية في أرض جحرة عاطلة من كل أثاث : لقد عرفت مقدماتك وشعرت به ، وأحسست بك تسأل صبية أهل القرية عنى ، كنت أسمع صوتك يرن في أذنى . وهأنذا أراك كأنك ذلك الفتى المرح الذى كنت معه نقيم المدرسة ونتمدها بمجانتنا وعبثنا ونكنا ،

لقد أرسلتك العناية الإلهية التي طالما أنكراها عن رعونة وأفن لأودعك
الوداع الأخير .

أوه يا إبراهيم بك ! هل عدت إلى الوداع والتوديع ؟
أجل أجل يا صديقي ! لقد ناديتك فاستجبت ، فلولا أن صلة روحية
تصل بين قلوبنا لما كنت سمعت ندائي . وما ناديتك إلا لأفضي إليك
بسرّ كتمتلك إياه زمنا طويلا . لقد حمت أوصاب ذلك السر وحدي ،
وإنى على استعداد أن أنقذك مالا وافرًا هو الكفارة الوحيدة عن ذلك
السر ، وقال : ستنام الليلة معي هنا في هذه الحجرة ، وسأحدثك طويلا في
أمرين اثنين ، أما الآن فعليك أن تذهب إلى المائدة حيث أعدت لك
عمتي الخبز بون طعاما شهيا . أما أنا فقد اجتويت اللحم وصرت نباتيا منذ
افترقنا في مصر .

أقبل الليل ، فسكنت الدار وخرست القرية ، وأخذت الثعالب تعوى
والكلاب تنبح ، وكأنه لم يبق في الوجود سوى شبح صديقي إبراهيم يتكلم
كأنه المحيط أمواجه في أعماقه إن اعتلت صارت كالجبال الشامخة ، وإن
غارت أصبحت كالأودية السحيقة . أما أنا فقد كنت جالسا أسمع . قال :
في هذه الحجرة بدأ ثم تم كل شيء ، وسينتهي الأمر هنا في هذه
الحجرة وضرب الأرض بجمع يده .

نظرت إلى عينيه فإذا بهما تتقدان ؛ فاستفسرت بنظراتي لا بأساني

فقال :

يوم تركتك في بعابك قبل أربعين سنة جئت إلى هذا البيت ، أتذكر

ذلك ؟ في هذا البيت يا صديقي ولدتني أمي ، وفيه مات أبي وأمي . أما أنا فقد نموت فيه وكبرت مع خادمة يتيمة مثلي تدعى حسيبة ، كم لعبنا صغاراً في هذا البيت . لم تكن حسيبة خادمتي بالمعنى المعروف ، بل كانت لي ترباً وصديقة وزوجة ، كنت أقاسمها كل ما كانت تهبطني عمتي وأنعمامي من حاوي وألعاب ، ولم أكن أوثر نفسي على حسيبة بشيء البتة إلا في الثياب إذ لم يكن في وسعي اقتسامها معها . وكان إذا بدر من عمتي ما يسيء إلى حسيبة كنت أواسمها وأسرى عنها ، ولا أدع للجزن سبباً إلى قلبها الرقيق الحنون .

حدث في فصل من فصول الصيف أن جاء أحد أعمامي من بيروت لزيارتنا ، فلما رأني وحسيبة قال لعمتي عنا : لقد صاروا شابين ، ورفع يديه مشيراً إلى طولنا وعرضنا ، وأننا متى أتممنا دروسنا سيزوجني إياها . لا أستطيع أن أصف لك يا صديقي مبالغ فرحي بهذه البشرية السعيدة التي صار عمي ذلك لأجائها أحب أعمامي إليّ وأقربهم إلى قلبي بعد حسيبة . ولما كنت أنفرد أنا وزوجتي ، زوجة المستقبل ، في حديقة المنزل ، كان يحلو لي أن أخطبها بلهجة الأزواج ، كما كان أحب الأمور إليها إنجاز مطالب الزوج الأمر .

فصلت بيننا المدرسة ، ثم فرقنا الاغتراب ، ثم قطعت حياة المدينة كل صلة كانت لي بتلك اليتيمة ، بل قل إنني نسيتها وصرت لا أذكر ملامحها ولا قسما وجهها وقد انحمت من تخيلاتي .

لا أريد الإطالة في حواشي الموضوع مع وفرتها وعلاقتها بصميمه

فلأصل بك إلى النتائج فأقول : لقيت بيتنا هذا على حاله لم تتبدل معالمه بسبب الإهمال. أما الحديقة الواسعة فقد نبئت فيها الأشواك والنبات الشيطاني وشاخت بعض أشجارها وييس البعض الآخر إلا شجرتين من التفاح كنت غرست إحداها بيدي إلى جانب الأخرى التي غرستها حسيبة، وقد نمتا وضربت أغصانها عرضاً وطولاً . أما عمتي فقد أخنى الزمن عليها ولم يبق في رأسها شعرة سوداء. وأما حسيبة فقد كانت حزيننة النفس منكسرة القلب مشردة الدهن ، وقد قالت عمتي عنها إنها مصابة بنوع من الجبل والذهول ، كما قال الطبيب ، لا بتعادها عن الناس ونفورها منهم .

ما كدت أستقر في الدار حتى أخذت الحياة تدب فيها من جديد ، وقد عاد إلى عمتي بعض نشاطها ، كما نشطت حسيبة إلى تنقية الحديقة ، ونزع الأغصان الجافة في الشجر ، والأوراق المتناثرة المتركة في الأرض ، وإصلاح جداول المياه لسقي الأرض ، ورأيت عناية منها بشجرتي التفاح ، ولحمت فيها ما استرعى انتباهي ، وهو غصنة في الكلام ، ودعة تنحدر من عينيها قبل الإجابة على سؤال ، وفضول يدفعها إلى سماع كل ما أقول ، وتلصص عليّ في غرفة نومي .

أشرت إليها مرة أن تصلح من شأنها وتبدل ثيابها ، فسرعان ما نظرت إلى عمتي نظرة فيها ما فيها من معاني التحدي ، وعادت حسيبة من غرفتها نظيفة حلوة تقدي على كتفيها ضفيريّتان من شعرها الفاحم الناعم وقد برزت نضارتها بأبهي ما تكون في فتاة قروية في سنّها ، وقد لحمت الحزن في عينيها والانكسار في نفسها .

رفع رأسه إلى وقال : حياة الوحدة في الجبال يا صديقي ، والراحة من العمل ، وقوة الشباب ، تبعث من العزائر ضباباً يثير العاطفة ، ويحجب الإدراك عن البصيرة ، ويحد العقل عن التدبير . ثم قال :

— أخذت صورة حسيبة تبدى لي واضحة ، وقسماتها متناسقة ، وأخذ يفوح من صباها عطر وضباب يؤلفان لحياها شبيحاً يلازمني في اليقظة وفي النوم . آه يا صديقي ! كم من ليلة تقلبت فيها على فراش من جمر الأرق ! وكم من مرة جنُّ فيها جنوني كلما جنَّ الليل .

لقد انقلب كل شيء في البيت إلى ضده ، حتى طبائع الأشياء ارتدت أرديتها مقابرة ، فسارت الهممة العجوز نشيطة مرحة ، والفتاة الباهية الجنوننة عاقلة جميلة ، كأعقل النساء وأجملهن ، ومخزية كأنها الاغراء نفسه ، وغدوت أما الشاب المتأنق الكثير الاعتداد بالنفس والكرامة والمحافظة على المظاهر أندس في حجرة حسيبة ، وأتقلب على فراشها لا يثنيني عنها سوى الفجر الفضاح ، وارتواء يعقبه ظمأ مجنون ، ومرح لا حدود له .

نسيت الزمن يا صديقي كما نسيت الواجب ، ولم أنس الوجود . لقد حاولت إدماج الزمن والواجب والوجود في لفنة واحدة أطرحها في بورتقة تضطرم حولها نيران شهوة مجنوننة فتنصهر سبيكة مدهنها لذة الشباب ومتمعة الجسد ، وغايتها بقاء الحياة .

تناسيت تجاهل عمي وموقفى وتغاضيتها عن الزلاقي في حجة لم أكن أفكر آنذاك أنها ومحاة حمئة ، واندفعت كما يندفع الغر الذي يجوب السباحة في البحر ، يضرب الأمواج بكفيه وهو عائم في مكانه الضحضاح في انتظار

موجة تغمره فيتوهم أنه عوام صنديد!! تمنيت لو تدوم هذه الجهالة لأستمع
بلذات واقعية هي الصورة الأصلية لحيوانية الإنسان .

... وأخيراً اقتلعت نفسى اقتلاعا من فردوس اللذة والخبور ، وتركت
القرية بعد أن أودعت عمى سرى ، ووقفتها على مقصدى ، وحذرتها من
ثقل أخبارى إلى أعمامى الذين ستباغتهم مفاجآتى إياهم بالأمر الواقع ،
وأفضيت بقصدى إلى حسيبة التى قبّلت يدي ساعة وداعى ، رافعة الرأس ،
مفتوحة العين ، يتظلة الروح .

عدت إلى وظيفتى فى القاهرة أعمل بهدوء واطمئنان فى بناء حياة
جديدة قوامها الأسرة ودوام البقاء .
أتمت تأثيث عش الزوجية ، ولم يبق لكماله سوى إحضار حسيبة
تزيهه بوجودها وتسعد ربه بها .

كتمت الأمر عمى الدكتور الذى كنت أفيم معه فى بيت واحد
كما تعلم ، ولكنى كنت أواصل الكتابة إلى عمى أوصيها خيراً بحسيبة ،
وأنبئها بموعده قدومى إليها .

ما كاد يُقبل فصل الصيف حتى عزمتم على السفر إلى حاصبيا . . .
كتمت إلى أعمامى أدعوهم إلى اللقاء فى بيتنا فى القرية لأمر يدخل الفرح
على نفوسهم ، وحددت شهر سبتمبر للفرحة الكبرى والمفاجأة السارة بزواجى
من الآنسة ؟ وتركت علامات الاستفهام تشير رغباتهم وحب اطلاعهم .
بُعِثُ حين رأيت عمى الدكتور يستقبانى عند باب الدار فى القرية ،

وعهدى به قد سافر إلى فرنسا لحضور مؤتمر الأطباء . ولما دخلت القاعة
لقيت أعمامى جالسين فى مقاعدهم واجمين .

جهدت الابتسامه على شفتى وعقد الوجوم لسانى ، فلم أسلم بل ارتعيت
على أريكة قريبة وسألت بالنظرات ما الخبر ؟ ؟ ... سمعت صوت بكاء
عمتى كأنه نعيق اليوم ، فانهضت وقلت أين حسيبة ؟

همَّ عمى الدكتور بترك القاعة ، وقد قرأت بامحة خاطفة سطور الجناية
مرسومة على جبينه . استمهلتته بصوت مرتفع صارم أن يقف وبقبضة
كف حازمة أن يقول أين حسيبة ؟ وماذا فعل بها ؟ ؟
لنعت عمتى المجرمة وقلت لها اخرسى ... وكفى عن البكاء الكاذب
والحزن المصطنع .

.....

لقد تألب أعمامى على بين معزى عزيزين ، ومكفكف ددمى ومسكن
هياجى ولاعن تصرف أخيهم الطيب العالم وأختهم الجاهلة الغبية .
لقد نفذ سهم الطب والجهل بفتاة يتيمة مسكينة أجنها السكت ،
وشفاها الحب ، وقتلها أدياء الشرف والصيت .

قتلت حسيبة مجهضة وأقتل ابنها معها ، ولم تدر القرية بالجرم ولا
بالجرمين !!! لقد بصقت فى أرض القاعة بصقة الاحتقار ، ولما أدر إلى من
ارتدت تلك البصقة أ إلى وجهى أم إلى وجه عمى فعمتى .

ساد غرفتنا صمت شعرت برهبتة وأخذ دبيبه يدب فى جسدى ، ولكنى لم

يطل ؛ لأن صديقي إبراهيم نهض ومشى بخطى ثميلة إلى خزانة أخرج منها
أضبار أوراق دفعها إلي وقال بعد أن جلس : « ودعتك في الاسكندرية
قبل أربعين عاماً يوم سافرت إلى مجاهل المكسيك ، وكان الله أراد بي
أن أكفر عن جنائتي ، فمدت في خيل حياتي ، وفتح لي خزانته .

قلت لك إنى سأعطيك مالاً ، فأليك المال ، هاك مائة ألف من
الجنهات كسبتها كسباً حلالاً ، ابن بها الملاجي الأيتام ، اعمل على وقاية
اليتيمات من إغراء الرجال وعلى تزويجهن ، وابكني يا صديقي كما بكيت
نفسى لأنى ربيت فى اليتيم .



ما كدت أصل إلى صوفى عائداً من حاصبيا حتى نشرت الصحف نبأ
وفاة المحسن الكبير المرحوم إبراهيم بك المركب منتحرا .

کتاب
مجموعہ

obeykandl.com

- ١ -

قرأ

أربعة رجال من نزلاء مصر خبر الحفلة التي أزمع السوريون إقامتها لتكريم رئيس الوزراء الذي قدم مصر ليشارك في حفلة افتتاح جامعة الدول العربية ، فطاب لكل واحد منهم أن يشارك مواطنيه في هذا التكريم الدال على أن الاغتراب عن الوطن والانتساب إلى غيره لا يحدان من العاطفة الوطنية ولا يصدان عن الحذب على أبناء وطنهم الأول ، بل على العكس ، يوقظ حادث كهذا الكثير من خبايا الذكريات الكامنة الحبيبة إلى النفس ، خصوصاً ذكريات الطفولة والمدرسة والصبا .

لعل الذين اشتركوا في حفلة تكريم الوزير السوري ، كان وجدانهم يضطرب بهذا الشعور أو بما يقاربه من أحاسيس بريئة ، إلا أربعة رجال أزعجهم اشتركوا في هذا الاحتفال بدافع يخالف تلك الدوافع . وادلنا لو سألنا كل واحد من هؤلاء الأربعة عن السبب لعجز عن ذكره .

رأيتهم يدخلون قاعة الاحتفال واحداً إثر واحد كأنهم كانوا على ميعاد ، ولاحظت أنه ما من واحد من أعضاء لجنة الاستقبال النفط إليهم أو خصهم بكلمة ترحيب .

هرعت إليهم وحيبتهم أطيب تحية وأجاستهم مجلساً حسناً . ما كاد أولئك السادة يطمئنون في مجلسهم حتى التفت كل منهم إلى جليسه ثم صوبوا نظرهم إلى ، فكانت مفاجأة من أبهج مفاجآت العمر وأحلاها ، وكان أبهج من ذلك وأحلى أننا تعانقنا وبكينا .

كنا أصدقاء . وامل كلمة الصداقة تعجز عن تصوير الروابط الدموية
التي كونت صداقتنا ، وقد فرقتنا حوادث جسام ابتدأت في مستهل هذا
القرن ، ولم ننج منها إلا عقب إخفاق الثورة السرزية ، وليأذنا بمصر هذا
البلد الأمين .

كنا قتيانا أغرارا يوم اقتفينا إثر زعمائنا في مناصبة الدولة العثمانية
العداء ، وكنا في حماة من الضلال يوم حاربنا الإنجليز في « كوت الإمارة »
وعلى ضفاف قناة السويس مع الجند العثماني جنبا إلى جنب ، وكنا في غمرة
من الجهل يوم اقتادونا لنتنظم في جيش الخلافة نقاتل الأتراك ، وكنا
في جنون مطبق يوم قاتلنا الفرنسيين في « ميسلون » على أبواب دمشق ،
ثم لم يدركنا الرشد إلا بعيد إخفاق آخر ثورة دموية ، وكانت جبال الدروز
ميدانا لآخر قتال اشتركنا فيه بهد حرب العصابات في « غوطة » دمشق .
مرت بذهني صور تلك الحوادث ، وتذكرت أياما قضيناها في السجون ،
تارة مجتمعين وأخرى متفرقين . أما الليلة ، أي بعد مضي حوالي ثلاثين عاما ،
فقد جمعتنا مصادفة من مصادفات المناسبات لتكريم الوزير السوري الأول
الذي ساير ، ولا بد ، حياتنا الجهادية ، تلك التي فتحننا عليها أذهاننا قبل
أن تفتح لأنوار المعرفة عقولنا .

هل يعرفنا الوزير ؟ هل نعرف الوزير ؟ مَنْ مِنْ شهود هذا الحفل

الحاشد يعرفنا ؟ ! !

أسئلة ألقها عيوننا بالنظرات ، وبالنظرات أجابت عنها ، فتفاهمنا كما

كنا نتفاهم على تنفيذ أمر خطير مدبر، فانسألنا من مكان الاجتماع متعاقبين
ليضمنا مجلس هادى نتكلم فيه أحرارا !!

استوينا فى مقاعدنا بمقهى ندخن النارجيلة ونحتسى القهوة . نتكلم
عن ماضينا وكيف قطعنا مرحلة الشباب فى الثورات والتشرد والمحاكمات
والسجون ، حتى وهنت عزائنا وكلمت هممنا ، فصرنا لانصاح إلا لعلمك
حياتنا الماضية واجترار أحداثها .

قال أحدنا : « منذ أخفقت الثورة الدرزية بسبب اختصام زعمائها
على الزعامة الكبرى ، وعلى استئثار كل فئة من المتحزبين بالأموال
التي كانت ترد من هنا ومن هناك باسم الثورة ، انسلت من بين الصفوف
ولدت بمصر أداوى جراحاً حملتها أوسمة لاتصدأ ولا تمجد حاملها !! »

فأجابه أحدهم مازحاً : « ظننت والله أنك سبقتنا إلى العالم الآخر » .
فرد عليه بلهجة جدية قائلاً : « أتمسب وفاء منى أن أرحل وأترككم هنا؟ »

وقال آخر : « لقيت السلامة فى سكنى هذا البلد الذى لم يعرفنا أهله
إلا عن طريق السياسة ؛ فصرت أعمل ، لأعمل المطمئن المستقر ، بل عمل
إنسان « على سفر » . وبالرغم من هذا القلق المعنوى أسست تجارة ،
و بنيت أسرة ، وتطورت ميولى الوطنية فصارت أشبه بميول المشتاق لحبيب
بعيد ، واستوطنت مصر » .

قال أحدهم يذكر صديقه بموقعة مع الفرنسيين وقعت لها « برأس
بعلبك » ، وذكر آخر حادثة ثانية وقعت له يوم ثورة « حماه » ، وذكر هذا

واقعة جبال العلويين، وذلك حادثة «القبيطرة» وأخذوا يذكرون حوادث
لثورات أشعلوها على الاستعمار الفرنسي .

قلت وقد كفوا عن اللفظ : «حقا يا إخواني أن ذكرياتكم سجل لتاريخ
حقبة من حياة سورية ، وأن هاتيك الذكريات ستبقى مكتومة في الصدور
أو مبعثرة على ألسنة الرواة ، حتى تصادف مؤرخا غير ماجور على تليفق
تاريخ لسورية . والآن وقد جمعنا المصادفة ، هل لكم أن تذكروا أروع
حادث وقع لكم في جهادكم وأخطر موقفٍ وقفتُموه ؟»
لم يدم صمتهم طويلا ، فقد انبرى واحد منهم وقال :

— ٣ —

لست أحسن الترميق ولا التزييق ، إنما أقص الواقعة كما وقعت :
أخذنا الأعداء على غرة ، كانت أجنادهم في ذلك النهار عديدة ، وكانوا
لوفرتهم وتراضهم هدفا لطلقات من بنادقنا لا تخطئ ولا تطيش . أخذتنا
نشوة الإمعان في التقتيل ، وعلى الأخص حين رأينا طرائدنا تتلوى
وتتساقط . كنا نسرف في إطلاق الرصاص ونرمى رمى الواثق المطمئن ،
ولكنني فطنت إلى نفاذ ذخيرتي . وكان يحمل صناديق الذخيرة إلينا
في متاريننا فتبان كتموا حماسهم من شدة سرورهم بالقتال والنصر .
أخذت الشمس تزول وتنحدر، ولم أفطن إلى عطش أوجوع ، وإنما فطنت
إلى نفاذ ذخيرتي . ولما التفت إلى زميل كان إلى جانبي لأستعير منه طلقات
لبندقيتي ، ألقىته في حالة من التوتر والانفعال يعبر عنها بزغردات الظافر
الناجي . ولكن نشوة الظفر تلك لم تطل إذ افتقد جعبة (الخرطوش)

فإذا بجيو بها فارغة. فالتفت يطلب النجدة مني، ولم نلبث أن سمعنا خطوات
إخواننا تقترب منا تطلب قذائف .

أتى لنا بذخيرة ونحن لا نعرف لها مستودعا غير أكتافنا، والصناديق
ملقاة على الأرض فارغة أمامنا؟ أجمعنا على الإفلات من العدو الذي أدرك
نقاد عتادنا ، فأخذ يتقدم بل يسرع في الدنو منا .

عمدنا إلى خيولنا ، وكانت مربوطة في غيضة تبعد قليلا عن ميدان
المعركة. وما كدنا تقطع بها البقعة الكثيفة الأشجار حتى تبين لنا أن أسراباً
من جند الأعداء تسرع من ناحيتين لتطويقنا . أطلقنا الأعنة لأفراسنا
التي استثارتها صيحاتنا لننجو من الرصاص المصوب إلينا من الجانبين ومن
الخلف وكان يتساقط علينا كالبرد .

ليس من المغالاة في شيء أن أقول لكم يا إخواني إن الخيول تنفخو ككرام
الرجال ، وتنثشي إذا انتصرت كطبائع الناس . وما أنس من شيء لأنس
كيف كنت أتشبث بعرف فرسي كالطفل ، وكيف ألصقت صدري بالسرج
تاركا لها العنان ، وكيف تمهلت الخيل ثم التفتت ، ثم أطلقت صهيلاً
تتحدى به متبعينا ، وتندد بعجزهم عن إدراكنا ، وأخذت تمشي الهوينى
متبخرة كالغيد الهيف .

زال عنا خطر إحداق أعدائنا بنا ، وأخذنا نفكر أين نبيت ؟ وماذا
نأكل ؟ قال أحدنا مازحاً : ننام حيث تنام خيولنا ، ولكن هل
في وسعنا أن نأكل من زادها ؟ !

نبه مزاح صاحبنا معدنا فأخذنا نتلمسها . وبينما نحن نلطف معدنا الحاوية ، إذا بأزيز طيارة يملأ الفضاء .

نسینا الجوع كما نسیننا معدنا . وفي هنيهة وجيزة وبدافع من حب البقاء ، عمدنا إلى خيولنا ، فأعماها على جوانبها متباعدات ، وانبطحنا بعیدین قليلا عنها .

عجباً لتلك الأفراس! كيف أدركت الخطر الداهم فاستنامت كأنها خائفة مثلنا ، وكان حب البقاء كان رائدها أيضا !

أخذت الطيارة تهبط كأنها فوقنا وتمحوم حولنا . لقد كشفنا قائدها الخبيث . رأيتها ترتفع ، ثم سمعت بأذني سكوت محرركاتها ، وسمعت أيضا أزيز القنبلة في سقوطها وقد أدركت هدفها .

نزات النازلة ورأيتها رأى العين تسقط على قيد أمتار مني ، أحسست أنا الذي ما آمن قط بغير قدرة الإنسان ، أن كل ذرة من وجودي تهتف بقوة وضراعة تستنجد بخالق الإنسان ، وقدرت أني ورفاق من الموت على طرفة عين .

انقضت الثواني والدقائق . لقد تفكك في غضوننا كل عضو في مفاصلي ، إلا ذهني فقد بقي في يقظة يرتقب الموت المحتم حين انفجار القنبلة ...

القنبلة لم تنفجر ! لم تنفجر القنبلة لأنها صادفت أرضاً رخوة ! .



آه ... يا للأسف !! صرخة صرخها أحد المنهوتين ، وقد خرجت

من أعماق صدره ، وقد أتبعها بقوله : « والله لو انفجرت تلك القنبلة الخائبة وجرحت فرسا من أفراسكم لجزعت عليها ، ولكن الله سلم » !!!

— ٣ —

« حكايتي أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذي تركته حوادث

الجهاد الوطني في نفسي ، لا حول أبلغ حادث حدث لي : كنت أتوقع عند ما عيّنت ضابطاً في الجيش أن ألقى مشاكسة من زملائي الفرنسيين وتعالياً على الضابط « العربي » أي على أنا ، فوطدت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف .

نجحت بعض النجاح في السير على منهاجي ، ولكني لم أنجح في قطع السنة أولئك الضباط عن القدح في قومي وسب « السوريين القذرين » ولا سيما حين كانت تضمنا مائدة شراب . ولم يكن يندّ عنهم إلا ضابط من رتبتي كان يقف دائماً في وجه أولئك القادحين ، فيصدّهم عن المضيّ في طعن الأمة العربية إكراماً لي ، « أنا زميلهم الضابط الكيس ، وللخلاء الذين عرفناهم من السوريين » . فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية و بغض ، وكان ذلك الضابط — نضر الله وجهه — يدافع عن السوريين ، ويصف حكام قومه بالطيش والهوج في مدّ حكمهم وبسط سلطانهم على شعب لا تنقصه خصيصة من خصائص الاستقلال ، ولا تعوزه الدراية بتحمل التبعات الاجتماعية ولا الوعي القومي ؛ فقد استمد مزايده من تاريخه العربي ومن الانتقالات التي تأثر بها في مطلع هذا القرن » . وكان يقول :

« لقد أيقظنا نحن الفرنسيين نفوس الشعب السوري ذاته بتلقيه في مدارسنا مبادئ ثورتنا للحرية والمساواة وتعاليمنا فن الحياة » ، وكان يساير زملاءه في الطعن على الدهماء في كل الأمم ؛ لأنهم يتساوون مع السوائم في إرضاء شهواتهم وتسكين معدهم ، ولا فرق في طوائف العامة بين شرقي وغربي ولا بين لون ولون أو جنس وجنس . وكان كلام ذلك الضابط الأريب يشجعني على إبراز فضائل قومي الأصيلة والمكتسبة ، وعلى إبداء الرأي أيضا في الوسائل التي قد تقرب بين الحاكم والمحكوم .

اشتعلت نار الثورة في جبل الدروز ، وسرعان ما امتدت أسنتها إلى دمشق فمدينة « حماه » .

جن جنون الفرنسيين ، فأمر قائدهم الأرعن الأعلى بإطلاق المدافع تلك قذائفها أحياء دمشق ، وانطقت أجناد الجيش في « حماه » يمعنون في قتل الناس وإحراق بيوتهم ومزارعهم . كانت أخبار الثورة في كل ميدان تصلنا في الميعاد . عرفنا ما حلّ بحملة الجنرال « ميشو » وكيف مزقها أبطال الدروز شرمزق . وعرفنا أيضا فزع زهرة شبان دمشق من طلاب المدارس العليا يلتحقون بثوار الغوطة . وهكذا كانت أخبار إخواننا الثائرين في داخل البلاد من نساء ورجال ، وأخبار رجال السياسة منا ، البعيدين عن مواطن الخطر ، تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هي الأخيرة للخلاص التام من حكم الأجنبي المستعمر .

عملت ما في وسعي لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتي أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن . وقبل انبلاج

الصباح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على بضعة كيلومترات من مرابط الثوار. والفضل في هروبنا يعود إلى زملائي الضباط الفرنسيين وقد أثقت أدمغتهم «بالخشيش» في تلك الليلة . . .

. . . في منتصف ليلة من الليالي ، سرنا بطوائف منظمة من الثوار نقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال . بلغنا الموضع الذي قدرت أن الواقعة ستقع فيه، ووزعت رجالى توزيعاً يوم العدو بكثرة عدداً ، وأوصيت بعدم الإسراف في إطلاق الرصاص ليكون متواصلاً، ووقفت في مكان مرتفع مع بعض زملائي نرقب الموقعة ونديرها. لم أر ولم أسمع في حياتى عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التي كانت كأن العصور والمباريس وأكوام الحجارة هي التي تعدّ قنابل المدافع ، وتنفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ، وكأن رجالنا الأبطال ليسوا من لحم ودم ، بل قدر محتوم ينزع أرواح المستعمرين .

أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، ولم يتقدم العدو خطوة إلى الأمام، ولم يتبين له أآدميون يقاتلونه ، أم سرده وشياطين يصمون عليه الموت. وبينما نحن في هذا الموقف ترفرف فوقنا أجنحة الشعور بالظفر على العدو وإفساد خطته ، إذا بصوت من الخلف ينادىنى باسمى مقرونا بصفة حبيبة إلى قأبى « يا صديقى العزيز ، لا تظن أنى أغتالك غدرأً بل أقتلك دفاعاً عن قومى وشرفى العسكرى » و صوب بندقيته وسدها .

يكفى أن أقول لكم يا إخوانى إن خمس بندقيات صوّبت في لحظة

واحدة إلى صدر «صديقي العزيز» وإلى من كان معه من ضباط فرنسويين،
وأن رصاصتي كانت أسبق القذائف إلى قلبه .

... بكيت ذلك الصديق ، وما برحت أبكي سجاياه وشمائله ، لأنه

« إنسان مهذب » .

سأل واحد من المستمعين بتلهف عن مصير تلك الموقعة ، فأجاب
المتحدث بصوت تخنقه العبرة الجمادة : « لقد تولى رفاقي إدارتها بنجاح
حتى ارتد العدو ، أما أنا فقد وارىت قتيلي التراب » .



من يراقب أولئك الأصدقاء يؤلفون دائرة في وسطها نرجليات
تكركر وأنفاس تطلق في الهواء ، يحس بأن لا فارق بين المتحدث والسامع
في اعتصار أحداثه من قرارة نفسه ، وأن الكلمات المهموسة تبلغ مكن
الضمير وحنايا الوجدان .

— ٤ —

أحدثكم أيها الرفاق عن حادثين متناقضين يسبقان أحداث الثورات
الداخلية ، لعل أعيدهما نظرة الحياة إلى وجوهكم وقد فنيت فيها البشاشة
وغاضت مياها .

وحكايتي لا بد لها من مقدمة أقرر لكم فيها أن المبادئ التي
يصطنعها أصحاب الأغراض الوطنية ويتخذها الشبان مثلاً علياً ، ليست إلا
سطورا مسجاة في صدورنا ، أوجثنا مدفونة فيها ، قيمتها في الثروة عنها ،

وهي على وجه التمثيل كالبخور الذي يطلقه المشعوذ . أما تنفيذ المبادئ والعمل للمثل العليا ، أو العمل على الأثقل في حين غير بعيد عنها ، فليست هي في وسع الرجل ولا في طاقة الشعب الذي قضى عليه بأن يكون محكوماً ولا راداً لفضاء القوة عليه !!

ولبيان ذلك أقول : ألفنا نحن الطلاب العرب ، أيام كنا نطلب العلم في الاستانة ، جمعية اتخذنا لها القانون الذي قفنه لنا أصحاب المثل العليا في الوطنية والقومية ، وأقسمنا بالله وبالشرف والوطن على تنفيذه بإسراع ودماثة .

ساقتنا الدولة العلية التي كنا نعمل للخلاص منها والانعتاق من عبوديتها ، إلى محاربة دولة غريبة كنا نؤمن آنذاك أن لا سبيل لفيل استقلالنا الوطني وتحقيق آمالنا القومية العربية ، إلا بمساعدتها إيانا . وقفنا أنا ورفاقى نتمسك بالمبادئ المدفونة في صدورنا ، وإذا الأوامر العليا تستحثنا على التقدم والقتال ، وشعرنا بأن قوة جارفة من حديد ونار تجرفنا من وراء وتدفع بنا إلى الأمام .

حاربنا ! أجل لقد حاربنا من قال زعمائنا عنهم إنهم عندتنا للاستقلال ، وقاتلنا قتال المجاهدين في صفوف من قالوا لنا إنهم أعداء استقلال وطننا وقوميتنا !!!

لقد أنستنا الحرب إنسانيتنا وردتنا إلى أصولنا المتوحشة . كنت في بداية الحرب ، وقد خفت ميدان القتال ، لا تفارقني الأشباح الرعبة ، والخيالات المزجة لشخص من كنت أراهم يسقطون بضربة سيف ،

أو بطلقة مسدس أو بندقية أطلقها من دون وعى، وما عتّمت أن تأكسدت
مشاعري فصرت كالجزار ينجر الكبش وهو يكبر .

صدرت إلينا الأوامر من القيادة بأن نحفظ بمواقفنا مهما كلفنا الأمر،
وبأن نعمل على التقدم مهما بهظ الثمن . كانت المدافع تدوى ، والقذائف
تخفر فجوات في الفضاء فتكظم بزخما نفس من يدنو من طريقها العريض ،
وبرغم ذلك كنا كالمناجذ نتقدم فنحفر حفرة تتحول في وقت قصير إلى
مخندق يقينا ويلا المدافع الرشاشة .

لم نكن نحفل بمن يستشهد منا ، أو يجرح فيتلوى كالطفل الممفوص ،
بلى كان همنا أن نتقدم وأن نقي أنفسنا ، ونحفظ بمراكزنا ، كأن في ذلك
منجاة لنا من موت يحوم فوقنا .

يا الله يا أصدقائي من نزعة حب البقاء كيف تدفع بنا إلى الموت حبا
للحياة . كان الوجود بأكله في ناحية ، وكنت أنا وحدي في الناحية
الأخرى، فلو فنى الوجود بمن عليه وبقيت أنا وحدي لكنت الوجود بتامه
وكاله ، ولم أكن أفكر ساعة الموقعة إلا في شيء واحد هو «أنا» .

لا أدري كيف لم تغب شمس ذلك النهار؛ لأن الجو كان مناراً بالآلاف
من ومضات المدافع وشرار البنادق ، فكان يتألف من مجموعها نور وضاء
ساعد على مواصلة القتال .

لم يكن الزاد ينقصنا ، وأكوام الذخيرة تعلمثنا على أن في وسعنا الدفاع
عن أنفسنا حبا في البقاء .

أين الراحة ؟ كيف السبيل إليها والموقعة ما برحت تتطلب الدماء ؟ !

لقد ارتوت هاتيك البطحاء بدماء المتقاتلين فلمن منهم تثبت الإصلاح ياترى؟ كنا نتقدم تارة ونتراجع أخرى . هذه هي الحرب السجال ولكن متى تنتهى الموقعة أو تخمد نارها؟ .

انبلج الفجر ، وأشرقت الشمس ، وأقبل الليل الثانى !! لم أعد أحس بحماسة للحياة ولا بدافع إلى البقاء ، إنما أنا فى حاجة إلى النوم ، إلى نوم عميق طويل ينقذنى من نفسى ، إلى هروب من هذه النفس التى تحوطها عناية الله ، وينزل بها بلاء الإنسان .

يا للشيطان !! هل هناك تناقض بين غايتين : غاية الله فى الحياة وغاية الإنسان فى إزهاق الحياة؟ .

ألقيت بجسمى فى حفرة من هذه الحفر التى شققناها بمعاولنا وأظافرنا فصارت خنادق طويلة عميقة . ألقيت مسدسى كأن لم تكن لى حاجة إليه ونمت .

كم ساعة قطع النوم من عمرى؟ لا أدرى!! أقسم لكم يا إخوانى أن لو اتصل نومي بالأبدية لما قلت إلا أنه الراحة الكبرى . . . ولكنى استيقظت . لقد أيقظتنى مياه غمرت الخندق وقد بلغ ارتفاعها فى . وقد أخذت أمتصها مع التنفس وكدت أختنق من الغصة . نهضت كالسكاب المبلول ، أنفص جسمى والسعال يكاد يخنقنى ، وكنت أرتعد من البرد ، وإذا بجماعة من الجند يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، سمعت منها رطانة تنبهنى إلى أنى أسير .

عرفت بعد أن بلغت مكان الاعتقال من زملائى الأسرى الذين جاءوا بعدى أننا لم نخسر تلك الموقعة ، ولم نقتدمها كزنا الأمامية ، ولكن

حين شعر الأعداء بإعيائنا وبم حاجتنا إلى الراحة ، خففوا ضغطهم علينا ، وعند
 ماركنّا إلى الراحة مستسلمين للنوم ، حولوا مجرى مياه النهر نحونا فغمرت
 خنادقنا وأغرقتها ، فهلك فيها من هلك غرقا ، ونجا من الموت من أفاق
 من النوم وداهمته قناصة الأعداء ليلقى منهم الأسر كما لقيته أنا . ومن
 العجب العجاب أن حكومة الدولة التي أسرتني ، بعثت بي إلى ميدان
 حرب جديد أقاتل فيه مع إخواني من كنا نقاتل في صفوفهم ! والفرق
 بين الدولتين أن العثمانيين ضموا علينا بالاستقلال وأن الانجليز وعدونا به
 فصدقنا وعدم !! والأغرب من هذا ، أني بينما كنت أحارب الأتراك
 بسلاح من الانجليز معار إلى الدولة العربية التي ارتجلتها السياسة ارتجالا ،
 التقيت عفواً بأخي الضابط يحافظ على الخط الحديدي الحجازي الذي
 انتدبت لنفسه بالسيناميت ، وقد ساعدني على إتمام مهمتي وعاد هو ورجاله
 معي لا أسرى حرب بل جنوداً بالجيش العربي ، جيش الخلافة العربية .

— ٥ —

تلبس القصة الواقعية ، في بعض الأحيان ، ثياب الأسطورة الخرافية
 وتبذرها في الغرابة . وكثيرا ما يحار العقل في تحليل وقائعها فينسبها إلى المصادفة
 والاتفاق . فإذا أعميته الحيل وعجز عن بلوغ الحقيقة المادية لجأ إلى القول
 بالقدرة والأسرار المجهولة . وأخيراً يعترف اعتراف المستسلم بالعبادة الإلهية ،
 وهي قدرة فوق طاقة العقل الانساني تحده عن إدراك الغاية الإلهية أي
 صنع العجائب والخوارق والمعجزات .
 وحكايتي أيها الأصدقاء فيها الأعجوبة الخارقة ، والأسطورة الخرافية
 الحية ، والواقعة المادية .

« كنا عشرين رجلاً ، منا الطبيب والجراح والمساعد والصيدلي فضلاً عن الأتباع ، وكان عددهم يناهز الثمانين ، وقد انتهينا ناحية في مؤخرة الجيش في ميدان القتال اتخذناها مستشفى للأعمال الجراحية والإسعافات الطبية . وكان كلما تقدم المحاربون من رجالنا ، تأتينا النقلات حاملة الجرحى فنضمم البسيط منها ونقطع الرأى فى الأمور الخطيرة التى تتطلب السرعة . تقدم جنودنا تقدماً محسوساً أدركنا مداه من الدوى الذى كان يصل إلى أسماعنا مخنوقاً خافتاً حتى حسبنا أننا انقطعنا عن الجيش .

لم نأبه لتقدم الجيش لأن حاملى الحفمات لم يشكوا من طول الشقة الفاصلة بيننا وبينهم . وبينما نحن فى مكاننا ذلك تستفرقنا أعمالنا إذا بالدوى قد عاد ، وإذا بصفير الرصاص وقرقعة القنابل وجلبة القتال كأنها استردت نشاطها الحى ، وأخذت المدافع تقصف وترعد وبدت كراتها تشق الفضاء وتمزقه تمزيقاً ، ولكنها كانت بجانب الاتجاه السوى .

لفت نظر زميل طبيب إلى تحول المعركة من الجبهة إلى الجناح فأجابني إجابة تهكمية أسكتتني . كان زميلى المتهمم ذلك ، سبط القوام ، عريض الألواح ، بديننا ، يحسن السخرية والتندر . لقد أحس ذلك الزميل مبلغ ألمى من تهكمه فدنا منى يلاطفنى ويطيب خاطرى .

فى تلك اللحظة سقطت قذيفة بالقرب منا . أقول سقطت ، لأن العجاجة التى أثارتها ، والرجال الذين تراكموا منا فانقلبوا على الأرض ، والحصى والحجارة والأتربة وقد عقدت سحابة داكنة فوقنا ، ثم تساقطت علينا ، جعلتني أرجح سقوطها بالقرب منا .

أقيت جسمي بين يدي زميلي الطبيب البدين، فاحتضنني كما تحتضن
الأم ولدها، ورأيتني أتشبث به كصبي مقرر أو مرعب .

انفجرت القذيفة بعيداً عنا، ولم أكد أنهي وجهي عن صدر زميلي
حتى رأيت محفات جرحانا تطير في الفضاء، وأحسست بجسمينا تحملهما عاصفة
شيطانية كأنها خرجت علينا بغتة من أودية الجحيم، ففقدت الوعي !!

لست أدري كم كان عدد الدقائق أو الساعات التي رحلت فيها في غيبوبة
أحسبها تماثل راحة الموت... ولكنني تنبّهت على معالجة إخراج وجهي
من حماة كادت تكتم أنفاسي .

الحماة لزجة كريهة الرائحة، وجفوني مقفلة بإحكام... أجفلت من
نفسى... حاولت التخلص مما أنا فيه لأتبين حالى على حقيقتها، فإذا ركبنا
لأتسعفاني بالنهوض وساعداي غريقان في بركة من دم ولحم .

دم ولحم؟! صورة مفرزة وثبت إلى ذهني فكدت أجن . أخذت
أنزع يدي كأني مسوع، ورفعت أصابعي إلى جفوني... رفعت أصابع ملطخة
تنفذ جفونا ملطخة!! حاولت مجتهداً أن أبتعد عن بركة أنا الغريق فيها،

لأنى ما كدت أنقلب على ظهري حتى أحسست أنى أتوسد أرضاً مرملة...
استعنت بالرمل على تنظيف يدي فكانتا تلتطخان من جديد؟! هل هما
مجروحتان؟! لا أحس ألم جراح ولكنني أشم رائحة الدم... عدت إلى

أصابعي أمسحها بالرمل، وإلى أهداب جفوني أغسلها بلعابي . كنت حتى
تلك الساعة أجهل أن الدم كريه الطعم كريه الرائحة . ولكن لا مناص
من إنقاذ جفوني من التصاق أهدابها حتى أرى على أى حال أنا وفي أى

بقعة من الوجود أكون، وهل من وسيلة إلى تضييد جراحي؟ وهل هي

تنزّ وتنفّص ؟ ولم يجبل في خاطري أنى كنت ميتاً ولا في حالة قريبة من الموت ، بل كانت دوافع الحياة تدفعني إلى الكفاح للنجاة مما أنا فيه .
انفتح جانب من إحدى عيني ، فاندفع النور فيها أو كأن النور انبثق من هذا الجانب !!! حاولت الجلوس فإذا بركبتى تشعراننى بألم محتمل .
طأطأت رأسي وأخذت أفتح ثغرات أخرى في أهدابي .
هأنذا أرى الحياة من جديد !!

شمس ساطعة ، وسماء صافية ، وصحراء هادئة ساجية ، كأن ليس عليها سوى أنا المهشم الجروح وهذه الجثة المهروسة التي كنت غريقاً فيها . جثة مهروسة حقاً ، أنا هرسستها بجسمي فأويت إلى أحشائها لأتقي الموت فحملت عبئه وحدها وأنقذتني . جثة إنسان ضخيم الجسم غرقت فيها من شدة ضغط القنبلة المعادية ، ولم تكن غير جثة زميلي الطبيب المفراح المزاح .
في تلك اللحظة التي تبينت فيها جثة زميلي وتحققت أنه الميت وأنا الحي ، في تلك اللحظة جمد ذهني ، وركد تفكيري ... كنت أنظر فلا أرى ، وأعي فكأني لا أعي ! كانت صورة جثة زميلي المهروسة ماثلة أمامي ، أرى الأحشاء مندلفة بشكل تنفر منه العين وتتقرز منه النفس ، وأشم رائحة ننتة هي رائحة الإنسان !!

لازمني ذهول مركز . كنت أرى فرق الجيش تمر بي من بعيد ، وثاب إلى رشدي ساعة أقبل رسل الإنسانية فحماوني على محفة إلى المستشفى .

* * *

ساد المجلس صمت ... أما أنا ، فلم أكد أهم بحكاية أخرى من وقائمي حتى شعرت كأن رفاقي يستمهلونني بل يستوقفونني ، وقال لي أذلقهم لساناً

عليك أنت أن تدون حكاياتنا ولا عليك أن تبتدع لنا حكايات . يكفيك
 أنك ألهبت شعورنا الوطني وإحساسنا القومي بما كنت تكتب وتشر على
 زعم أنه مقتبس أو مستمد من أرواح الزعماء ؛ فالزعماء يا صاحبي أرواح
 لا يفهمها الشعب ، لأنهم في مستوى أعلى من إدراك الشعب ، ولأنهم
 من فرط حبهم للشعب يفنون فيه أو يجعلونه يندغم بهم . أما زعمائنا
 أو معاير عظمتهم فهي رهينة بما يلبسون من ثياب الأسطورة ليصبحوا
 خرافة لا حقيقة ، وبما يثير الأتباع والأذئاب حولهم من هالات قدسية
 ويطلقون من بخور التدجيل والتعمية ، وبما يتشددون هم به في مجالسهم
 ويهرقون به من هراء فوق المنابر .

زعمائنا يا أصحابي شخوص متحركة . ولكن هل تعرفون من هم الذين
 يحركون هاتيك الشخوص ؟ أتعلمون أنهم لا يتحركون إطلاقاً من أنفسهم ؟
 أتدركون أنهم لا إرادة لهم لا في الحركة ولا في السكون ؟ أتدرون أنهم
 يعلمون أنهم شخوص تتحرك بدوافع غير منظورة لا يراها الشعب
 ولا يعرفها ؟ أتدرون أنهم يضرعون إلى الله أن يديم عليهم نعمة جهل
 الشعب لتبقى لهم لذة العظمة والاحترام وألقاب الفخامة والديلة ومتممة
 الغيبوبة في الهروب من الحقيقة وبقاء سكرة الفرح بأنهم زعماء ، ؟

هيا هيا يا إخواني إلى النوم ؛ فقد انتصف الليل . علينا غدا أن نعمل
 في تجارتنا لكسب رزق أولادنا ، وعلى أولادنا بعد غد أن يكونوا عميلاً
 مثلنا يقدسون الزعماء ، أو مبصرين يضعون شخوص الزعماء وعظمتهم
 تحت مواطئ الأقدام .

فهرست

٩	لقيط
٢٠	الدميم
١٤	بكاره
٧٣	الجارم
٩٥	غاية المرأة
١٢٩	الغريق
١٤٧	يتيم
١٦٥	ذكريات

تصويب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
رفع	رمع	١٥	٣٩
ابنتها	ابنها	٨	٤٣
المتشدد	المتشرد	١٨	٤٩
حجرة	ججرة	١٦	١٥٧

للمؤلف

أدباء معاصرون

بحوث في النقد الأدبي

و

شعاب قلب

مجموعة من روائع القصص

عنوان المؤلف

٥٦ شارع حبيب شلبي

بالظاهر

تليفون ٥٠٢١١